اللَّيْلُ فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ

دراسة موضوعيَّة

د. وائل بن محمد علي جابر

جامعة تبوك - كلية التربية والآداب

قسم الدراسات الإسلامية

المقدِّمة:

الحمد لله الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورًا، وجعل الليل لباسًا والنهار نشورًا، والصلاة والسلام على من أرسله ربُّه بالحقِّ بشيرًا ونذيرًا، وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا، أمَّا بعد:

فإنَّ الله تعالى لَمَّا خلق الخلق وأبدعه، جعله علامةً على وحدانيته وكمال صُنْعِه، ولذا حثَّ سبحانه خلقه على التفكُّر في آياته، والتدبُّر لمصنوعاته، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١].

ولا شكَّ أنَّ من أعظم آيات الله جل وعلا الشاهدة على وحدانيته وتفرُّده، والمقتضية لخشيته وعبادته: آية الليل، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

ومن هنا نشأت فكرة الكتابة في هذا المضمار، مشاركة للتدبُّر في آيات الله تعالى، وخدمة لكتابه العزيز، عبر هذا الموضوع الذي وسمته بـ(الليل في القرآن الكريم دراسة موضوعية)، وأسأل الله عز وجل أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في الآتي:

١. أنَّ التدبُّر والتفكر في الكون، وما خلقه الله تعالى؛ من أعظم الأعمال القلبيَّة.

٢. ربط الموضوع بهدايات آيات القرآن الكريم وتوجيهاته المحقِّقة للسعادة الشاملة في الدارين.

٣. معرفة الأسرار والفوائد التي أودعها الله في الليل من الظلمة والهدوء والسكينة، نعمةً منه سبحانه.

٤. المساهمة في إثراء المكتبة القرآنية للباحثين المتخصِّصين، والمهتمِّين بهذا الشأن.

تساؤلات البحث:

١. هل اعتنى القرآن الكريم بموضوع الليل؟ وما مدى تلك العناية؟

٢. هل يُوجد في القرآن الكريم – من خلال الاستقراء لآيات الليل – تنوُّعًا كميًّا في آيات الليل؟

٣. هل يُوجد ارتباط بين الليل والنهار، وما مدى أثر ذلك الارتباط؟

٤. هل اعتنى القرآن الكريم ببعض الليالي الفاضلة على مرِّ العصور؟

أسباب اختيار البحث:

١. استخراج الحديث القرآني عنآية الليل، وكيفيَّة توظيف معانيها؛ للمساهمة في الدعوة للتدبُّر والتفكُّر.

٢. وفرة الآيات الواردة في مواضيع شتَّى تتعلَّق بموضوع الليل، كالظلام والنور وغيرها.

٣. وجوه معرفة كون الليل نعمة من الله تعالى، وقد يكون نقمةً وعذابًا على بعض عباد الله.

٤. قلَّة من تناول هذا الموضوع من الجوانب القرآنية من حيث الدراسة الأكاديمية.

أهداف البحث:

١. إبراز دور القرآن الكريم في الدعوة إلى التدبُّر والتفكُّر؛ لتكون نبراسًا للمُهتمِّين بشؤون التفسير والتدبّر والتفكّر.

٢. إيضاح المعاني الواردة في كلمة الليل بجميع مشتقاتها، والوصول لمعرفة أسرار النظم القرآني.

٣. ذِكْرُ بعض مسائل الإعجاز المتعلِّقة بآيات الليل الكونيَّة.

٤. استخدام الدراسة التأصيلية والتحليلية والموضوعية للآيات المتعلقة بهذا الموضوع.

٥. استخراج الهدايات القرآنية من الآيات، وتوظيفها في معنى التدبُّر والتفكُّر.

حدود البحث:

الآيات المتعلِّقة بموضوع الليل من مختلف الجهات، مع الاستشهاد بالأحاديث المدعمة لهذا الموضوع.

منهج البحث:

المنهج الذي استخدمته في البحث هو المنهج التأصيلي والمنهج التحليلي، فالمنهج التأصيلي قائم على كون المادة العلمية من تخصُّص الباحث، التي تُمكنه من استخدام مهارات البحث فيه كفهم النصوص، والاستدلال بالقرآن والسنَّة، والتقسيم والتقعيد. والمنهج التحليلي قائم على تفسير النصوص وتحليلها، والنقد للأقوال، والاستنباط من النصوص ومدلولاتها.

منهج الباحث:

١. جمع الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع الليل.

٢. تقسيم الآيات في البحث بحسب النوع الذي تندرج تحته.

٣. توثيق الآيات القرآنية بعزوها إلى سورها مع ذكر رقم الآية في صلب البحث.

٤. الاستدلال بالأحاديث النبوية الشريفة في بعض المسائل المؤيدة لعنوان المبحث، مع عزوها إلى مصادرها في كتب السنّة، ونقل الحكم على السند من كتب المتقدمين ثم المتأخرين.

٥. شرح معاني الآيات والأحاديث الواردة في البحث من كتب المفسرين وأهل الحديث القديمة والحديثة.

٦. استنباط الهدايات القرآنية، والتوجيهات الربَّانية، والأسرار المودعة في آيات الليل؛ في قالب التفسير الموضوعي.

٧. الرجوع والاطلاع على الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع، وخاصة الدراسات المعاصرة.

خطة البحث:

تتكون من مقدِّمة، وثمانية مباحث، وخاتمة.

المقدمة: وفيها إبداع الله لخلقه الدال على كمال صُنعه، وحثِّ القرآن على التدبُّر والتفكُّر في آيات الله الكونية ومن أهمها الليل، ثم ذكرت أهمية البحث، وتساؤلاته، وأسباب اختياره، وأهدافه، وحدوده، ومنهجه، ومنهج الباحث، وخطة البحث.

المبحث الأول: مفهوم الليل. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعنى اللغوي والاصطلاحي.

المطلب الثاني: الليل في الاستعمال القرآني.

المطلب الثالث: ألفاظ ذات صلة بالليل.

المبحث الثاني: الليل آية كونيَّة.

المطلب الأول: الليل نعمة إلهيَّة.

المطلب الثاني: التفكُّر في آية الليل.

المطلب الثالث: علاقة الليل بالنهار.

المبحث الثالث: أوصاف الليل.

المبحث الرابع: أجزاء الليل.

المطلب الأول: أول الليل.

المطلب الثاني: وسط الليل.

المطلب الثالث: آخر الليل.

المبحث الخامس: الليل والعبادة.

المطلب الأول: قيام الليل.

المطلب الثاني: ذكر الله تعالى.

المطلب الثالث: التدبُّر والتفكُّر.

المطلب الرابع: تلاوة القرآن.

المبحث السادس: الليل والعذاب.

المبحث السابع: ليال فاضلة ذكرت في القرآن.

المطلب الأول: ليلة القدر.

المطلب الثاني: ليلة الإسراء والمعراج.

المطلب الثالث: الليال العشر.

المطلب الثالث: ليال موسى عليه السلام مع ربه عز وجل.

المبحث الثامن: لمسات إعجازية في الليل.

المطلب الأول: الإعجاز العلمي في آيات الليل.

المطلب الثاني: الإعجاز البياني في آيات الليل.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المراجع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: مفهوم اللَّيل

المطلب الأول: المعنى الّلغويُّ والاصْطلاحيُّ

أولاً: اللَّيل في اللغة:

تُطلق كلمة اللَّيل عند علماء اللغة على عدَّة إطْلاقات؛ منها ما هو مشهور ومنها ما ليس كذلك:

الأول: إطلاق اللَّيْل اسمًا على (الزَّمن)، وهو أشهرها، ولذلك يقولون: هو ضدُّ النَّهار وخِلافُه[١]. وهو الظلام الذي يَحلُفيه[٢]. واللَّيل: واحدٌ بمعنى جَمْع، وواحِدُهُ لَيْلَةٌ كـ(تَـمْرَةٌ وتَـمْرٌ)[٣]، والجمع: ليالٍ وليائل وليالي[٤]،واللَّيل اسمٌ لكلِّ ليلة[٥]، وعليه: يكون القَصْد منه الزمن.

الثاني: إطلاقُه على الحُبارى أو فرْخِها، أو فرْخِ الكَرَوان. وقيل في ذلك شِعْرًا:

أَكَلْتُ النَّهارَ بنصْفِ النَّهارِ *** ولَيْلاً أَكَلْتُ بِلَيْلٍ بَهِيْم[٦]

الثالث: إطلاقه اسمًا على المرأة، قال ابن سيده (رحمه الله ٤٥٨هـ): "ولَيْلَةٌ ليلاءُ ولَيْلَى: طويلةٌ شديدةٌ صَعْبةٌ، وقيل: هي أشدُّ ليالي الشَّهْر ظُلْمةً؛ وبه سُمِّيَتِ المرأة: لَيلَى"[٧].

الرابع: إطلاقه اسمًا لموضعٍ، قال ابن سيده: "وليلٌ وليلى موضعانِ"[٨]،وقيل في ذلك شِعرًا:

ما اضْطَرَّكَ الحِرْزُ من لَيلَى إِلَى بَرَدٍ *** تختارُه مَعْقِلاً عَن جُشٍّ أَعْيَارِ[٩]

---

(١) تهذيب اللغة، للأزهري، (٣١٨/١٥)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (٢٢٥/٥)، ولسان لعرب، لابن منظور، (١٧٨/٨).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٣١٨/١٥)، ولسان لعرب (١٧٨/٨) بتصرف.

(٣) لسان لعرب (١٧٨/٨).

(٤) المفردات في غريب القرآن، للرَّاغب، (٥٨٩/٢)، ولسان لعرب (١٧٨/٨).

(٥) تهذيب اللغة (١٤٩/٦).

(٦) أسرار البلاغة للجرجاني (٣٩٦)، ولسان العرب (٦٠٩/١١)، وتاج العروس، للزبيدي (٣٧٥/٣٠)، والبيت لم أقف على صاحبه.

(٧) المحكم والمحيط الأعظم (٣٩٦/١٠).

(٨) المحكم والمحيط الأعظم (٣٩٧/١٠).

(٩) عزاه ابن سيده في المحكم (١٧٤/٧) إلى النابغة، وعزاه ياقوت في معجم البلدان (١٤١/٢) إلى بدر بن حزَّان الفزاري يُخاطب به النابغة، وكذلك البكري في معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (٣٨٣/٢).

ومن خلال ما سبق يظهر أنَّ المعنى الأصيل لكلمة الليل يُطلقُ على الفترة الزَّمنيَّة المبتدئة من غروب الشمس إلى طلوعها، وهو ما عليه الأكثر صَنِيعًا في كُتُبهم -رحم الله أئمة الإسلام-.

ثانيًا: اللَّيل في الاصطلاح:

حدُّ اللَّيل عند المفسِّرين والفقهاء يختلف عنه عند أهل اللغة، وبناءً على ما سبق من تعريفِ اللَّيل عند أهل اللغة، يتَّضِحُ ارتباط المعنى اللغوي والاصطلاحي في كونه مُدَّة زمنيَّة، لها وقت ابتداء وانتهاء؛ فاتَّفقوا في وقت الابتداء وهو غروب الشمس، ووقع الاختلاف في تحديد مدَّة انتهاءِ اللَّيل، فأهل اللغة حدُّوه إلى طلوع الشمس، والفقهاء حدُّوه إلى طلوع الفجر الصادق (الثاني)، وهو الموافق لنصِّ القرآن الكريم كما جاء في آية الصيام.

ومن هنا فإنَّ اللَّيل هو عبارة عن: ظلام يَـحلُّ كلَّ يومٍ عقب النَّهار، مَبدؤُهُ من غروب الشمس، إلى طلوع الفجر الثاني(الصادق)(١٠).

وعليه؛ ففي التعريف قيدان:

الأول: حلول الظلام وذهاب الضياء، وهذا يَتِمُّ تدريجيًا بدخول أحدهما وذهاب الثاني، كما قال الإمام ابن جرير الطبري (رحمه الله ٣١٠هـ) **في قوله تعالى:** ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[يونس: ٦] "إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا"(١١).

الثاني: مدَّة زمن ابتداءِ الليلة وانتهائها، وهو من طلوع الشمس إلى طلوع الفجر الثاني.

وتختلف مدَّة طُوْله وقِصَرِهِ باختلاف مواقع البلدان وقربها من خطِّ الاستواء وغير ذلك، ومع تغيّر فصول السَّنة.

المطلب الثاني: اللَّيل في الاستعمال القرآني.

إنَّ المتأمِّل في القرآن الكريم من خلال لفظة (اللَّيل)، ليَجِدُ كلّ مدلولاتها اللغويَّة تُطلق على الزَّمن، ولم يَرِد فيه أيّ إطلاقٍ لغويٍّ مِمَّا ذكره أهل اللغة؛ مِمَّا يدلُّ على أصالة

---

(١٠) انظر: تفسير القرطبي (١٩٣/٢)، ولسان العرب (٦٠٧/١١)، ونظم الدُّرر، للبقاعي (٧٧/٩)، والتوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (٢٩٣).

(١١) انظر: تفسير الطبري، لابن جرير (٢٤/١٥).

معناها اللغويّ، وأهميّته في الشَّرْعِ؛ لتَتَّجِه البصائر والعقول لاستخراج فوائده وأسراره المكنونة فيه من مُبْدِعِها سبحانه وتعالى.

ويدلُّ على ذلك أيضًا ما ذكره أصحاب الوجوه والنظائر القرآنيَّة في كتبهم ومصنَّفاتهم، حيث لم يذكروا من معاني اللَّيل سوى معنى واحد والمقصود به الزَّمن، ومِـمَّن ذكر ذلك: مقاتل بن سليمان البلْخي (رحمه الله ١٥٠هـ) في "الوجوه والنظائر في القرآن الكريم"[١٢]،وهارون بن موسى القارئ (رحمه الله نحو ١٧٠هـ) في "الوجوه والنظائر في القرآن الكريم"[١٣]، ويحيى بن سلام (رحمه الله ٢٠٠هـ) في "التصاريف"[١٤]، والحسن بن عبدالله العسكري (رحمه الله ٣٩٥هـ)في كتابه "الوجوه والنظائر"[١٥]، وابن الجوزي (رحمه الله ٥٩٧هـ) في "نزهة الأعين النَّواظر"[١٦]،ومجد الدِّين الفيروزابادي(رحمه الله ٨١٧هـ) في "البصائر"[١٧].

وسأذكر مثالين لما تقدَّم:

المثال الأول: ما ذكره مقاتل بن سليمان من أنَّ الظلمات تأتي على وجهين، وذكر الوجه الثاني بقوله: "الظلمات: يعني اللَّيل، والنُّور: يعني النَّهار، فذلك قوله في الأنعام ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام:١] يعني وجعل اللَّيل والنَّهار، وليس مثلها في القرآن"[١٨].

ففسَّر الظُّلمة باللَّيل هنا؛ لأنَّ الظلام صفةٌ من صفات اللَّيل، له وقتُ ابتداءٍ وانتهاء، فآل الأمر إلى المدَّة الزمنيَّة.

المثال الثاني: ما ذكره ابن الجوزي عن شيخه حيث قال: "قال شيخنا علي بن عبيد الله(رحمه الله ٥٢٧هـ): والأصل في الظلمة: اسوداد اللَّيل. فإنَّه إذا عُدِم نور النَّهار وغيره من الأنوار اسْوَدَّ الأُفُق بتكاثف الهواء الرَّاكد، ولهذا إذا اشتدت الحجب على الهواء الرَّاكد، كان الظلام أكثر وأشد.

وذكر أهل التفسير أنَّ الظلمات في القرآن على ثلاثة أوجه - وذَكَر منها - الثالث: الظلمات المعروفة التي هي ضدّ الأنوار. ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ

(١٢) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم (٧٨).
(١٣) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم (٩٧).
(١٤) التصاريف (٢٠٩).
(١٥) الوجوه والنظائر (٣٢٢).
(١٦) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (٤٢٣، ٤٢٤).
(١٧) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٤٧١/٤).
(١٨) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم (٧٨).

وَٱلنُّورَ﴾، وفيالأنبياء: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[الأنبياء:٨٧] يعني ظلمة الليل، وظلمة الماء، وظلمة بطن الحوت"[١٩].

ولكنَّ الملاحِظ للفظ اللَّيل في القرآن الكريم، يجدُ أنَّ الاستعمال للفظة له معنى واحد والمقصود منه يختلف باختلاف السِّياق القرآني للآية، مِمَّا يعني أنَّها من المتواطئ اللفظي[٢٠].

وقد ورد استعمال لفظ اللَّيل في القرآن الكريم اثنين وتسعين مرَّة بصيغٍ مختلفة، بالإفراد تارة وبالجمع تارة، ومضافة وغير مضافة[٢١]، مِمَّا يدلُّ على أهميَّة اللفظة، وتشريف واختصاص اللَّيل ببعض العبادات كقيام الليل والاستغفار والتسبيح، أو السَّكنُ والرَّاحة بعد أداء الأعمال نهارًا.

ويُلاحظ فيها اقترانها بلفظ النَّهار ومدلولاته في الغالب، وقد ورد ذلك في سبعٍ وخمسين مرَّة.

ولو تأمَّل المتأمل لآيات اللَّيل في القرآن الكريم وحديثه عنها، يَجدها تنقسم إلى أقسام من حيث تصنيفها:

---

(١٩) انظر: نزهة الأعين النواظر (٤٢٣، ٤٢٤).

(٢٠) قال الزركشي وتَبِعَه السيوطي رحمهما الله: الوجوه في اللفظ المشترك الذي يُستعمل في عِدَّة معانٍ، والنظائر كالألفاظ المتواطئة. انظر: البرهان في علوم القرآن (١٠٢/١)، والإتقان في علوم القرآن (١٤٤/٢).

(٢١) ورد لفظ (اللَّيل) في القرآن الكريم على ستِّ صِيَغ:

الأولى:(اللَّيل) وقد ورد في أربعةٍ وسبعين موضعًا، في البقرة (١٦٤، ١٨٧، ٢٧٤)، وآل عمران (٢٧، ٢٧، ١١٣، ١٩٠)، والأنعام (١٣، ٦٠، ٧٦، ٩٦)، والأعراف (٥٤)، ويونس (٦، ٢٧، ٦٧)، وهود (٨١، ١١٤)، والرعد (٣، ١٠)، وإبراهيم (٣٣)، والحجر (٦٥)، والنحل (١٢)، والإسراء (١٢، ٧٨، ٧٩)، وطه (١٣٠)، والأنبياء (٢٠، ٣٣، ٤٢)، والحج (٦١، ٦١)، والمؤمنون (٨٠)، والنور (٤٤)، والفرقان (٤٧، ٦٢)، والنمل (٨٦)، والقصص (٧١، ٧٢، ٧٣)، والروم (٢٣)، ولقمان (٢٩، ٢٩)، وسبأ (٣٣)، وفاطر (١٣، ١٣)، ويس (٣٧)، والصافات (١٣٨)، والرمز (٥، ٥، ٩)، وغافر (٦١)، وفصلت (٣٧، ٣٨)، والجاثية (٥)، وق (٤٠)، والذاريات (١٧)، والطور (٤٩)، والحديد (٦، ٦)، والمزمل (٢، ٦، ٢٠، ٢٠)، والمدثر (٣٣)، والإنسان (٢٦)، والنبأ (١٠)، والتكوير (١٧)، والانشقاق (١٧)، والفجر (٤)، والشمس (٤)، والليل (١)، والضحى (٢).

الثانية:(ليلاً) وقد جاءت في خمسة مواضع، في يونس (٢٤)، والإسراء (١)، والدخان (٢٣)، ونوح (٥)، والإنسان (٢٦).

الثالثة:(ليلة) وذُكِرت في ثمانية مواضع، في البقرة (٥١، ١٨٧)، والأعراف (١٤٢، ١٤٢)، والدخان (٣)، والقدر (١، ٢، ٣).

الرابعة:(لَيْلَها) ووردت مرَّة واحدة في سورة النازعات (٢٩).

الخامسة:(لَيَالٍ) وجاءت في ثلاثة مواضع، في مريم (١٠)، والحاقة (٧)، والفجر (٢).

السادسة:(لَيَالِيَ) وذُكِرت في موضعٍ واحد، في سورة سبأ (١٨).

القسم الأول: آيات صرَّحت أنَّ الليل آية من آيات الله، ومِنَّةٌ مِنْه عزَّ وجلَّ على خَلْقِهِ؛ للدلالة على ربوبيَّته وألوهيَّته وقُدْرته وما إلى ذلك من المعاني الجليلة.

وقد ورد ذلك في أربعة مواضع:

الموضع الأوَّل: قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾[الإسراء:١٢].

الموضع الثاني: قوله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[الروم: ٢٣].

الموضع الثالث: قوله تعالى ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾[يس: ٣٧].

الموضع الرابع: قوله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[فصلت: ٣٧].

والملاحظ أنَّ الآيات السابقة تُثبت كون الليل آية من آيات الله جلَّ جلاله يمتَّن بها على العِباد، وأنَّ تعاقب الليل والنَّهار فيه منافع عظيمة لهم.

ففي الآية الأولى ذكر سبحانه وتعالى أنَّه أنشأ آية الليل ممحوَّة مُظلمة ابتداءً، وجعل آية النَّهار مُبصرة مُضيئة ابتداءً، لا أنَّهما كانتا مبصرتين[٢٢].

وفيها أيضًا أنَّ الليل والنَّهار "آيتان مختلفتان، بل متضادتان تضاد كل واحدة منهما صاحبتها؛ إذْ كل واحدة تنسخ الأخرى حتى لا يبقى لها أثر"[٢٣].

وفيها كذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ عرَّف عباده نِعَمَه عليهم، والتي منها جعلُ اللَّيل مخالفًا للنَّهار لأمرين:

الأوَّل: تسير مصالحهم بالسَّكن في اللَّيل والراحة فيه، والسعي في أرزاقهم ومعاشهم المقدَّرة لهم من الله نهارًا.

---

(٢٢) انظر: تأويلات أهل السُّنَّة (١٥/٧).

(٢٣) المرجع السابق.

الثاني: لكي يعلموا تعداد الأيام والشهور والسنوات، ومعرفة الأوقات وساعات اللَّيل والنَّهار[٢٤].

أمَّا الآية الثانية: فقد ذكر الله عزَّ وجلَّ أنَّ من حُجَجِه على النَّاس تقديره للسَّاعات والأوقات، ومخالفته بين الليل والنَّهار، للسَّكن ليلاً والتصرُّف نهارًا، وجعل ذلك عبرةً وذكرى للمنتفعين بها[٢٥].

وفيها أنَّ الله عزَّ وجلَّ احتجَّ على منكري البعث بالنوم في اللَّيل ثم الاستيقاظ نهارًا لِمَا فيهما من تشابهٍ، فالنوم يُفقد الإنسان خاصيَّة الأحياء من السَّمع والإبصار وما إليهما، ثم يُردُّ إليه من حيث لا يعرف فيعود إلى ما كان عليه من المنافع والكسب= فكذلك قضيَّة البعث والنشور[٢٦].

ويُلاحظ هنا استخدام القرآن لأسلوب الحِجَاج العقلي من أجل إقناع المنكرين للبعث والنشور، وعليه: فمن منهج الداعية والعالم وقت المحاجَّة مع من يُنكر النصَّ الاستدلال بالأدلة العقلية مع حُسْنِ عرضها، والله أعلم.

وفي الآية الثالثة: ذكر الله -في مَعْرِض المحاجَّة لمنكري البعث والنشور- آية اللَّيل والنَّهار، وكان الوصف بالانسلاخ أبلغ من غيره؛ لِمَا في اللفظة من القوَّة حين المحاجَّة، كما هو الشأن في السُّور المكيَّة.

ولذلك قال الماتريدي (رحمه الله ٣٣٣هـ): "سورة يس نزلت كلها بمكة محاجة أهل مكة في إنكارهم التوحيد، وإنكارهم البعث والقدرة على الإحياء بعد ما صاروا رمادًا، وإنكارهم الرسالة، وهم كانوا طبقات على هذه المذاهب المختلفة: منهم من أنكر التوحيد، ومنهم من أنكر البعث، ومنهم من كان ينكر الرسالة ونحوها، فبيَّن اللَّه تعالى في هذه السُّورة وذكر فيها الحُجَج على مُنْكِري التوحيد وعلى منكري البعث وعلى منكري الرسالة، وهو ما ذكر من الآيات"[٢٧].

والانْسِلاخ: إزالة الشيء من الشيء حتى لا يبقى منه شيء، فيكون المعنى: اللَّيل يُنزع عنه ضياء النَّهار[٢٨]، ولذلك قال سبحانه بعدُ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾ [يس: ٣٧].

(٢٤) انظر: تفسير الطبري (٣٩٥/١٧)، والهداية إلى بلوغ النهاية (٤١٥٥/٦).
(٢٥) انظر: تفسير الطبري (٨٧/٢٠).
(٢٦) انظر: تأويلات أهل السُّنَّة (٢٦٢/٨).
(٢٧) تأويلات أهل السُّنَّة (٥١٨/٨).
(٢٨) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦٠٣٣/٦) بتصرُّف.

ISSN:2617-3158

والتعبير بـ(إذا) للمفاجأة، أي: ليس بيدهم بعد ذلك أمر، ولابُدَّ لهم من الدخول فيه[٢٩].

وفي التعبير بالانسلاخ إشارة إلى حركة انسحاب النُّور، فيَنْسَلِخ النُّور شيئًا فشيئًا، كما يُسْلَخ الجلد عن الحيوان شيئًا فشيئًا، لا دفعةً واحدة.

وفي الآية الرابعة: بيَّن الله جلَّ جلاله أنَّ اللَّيل والنَّهار والشمس والقمر مخلوقات من مخلوقاته، وآيات من آياته تدلُّ عليه، فلا تُقصد بالعبادة والتعظيم؛ إنَّما يُقصد خالقهنَّ.

ومن المعاني المذكورة في الآية: "أنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات ألوهيته تعالى ووحدانيته كاللَّيل والنَّهار أنَّهما آيتان من آيات الله تعالى، فإذا لم تعبدوا اللَّيل والنَّهار فكيف عبدتم الشمس والقمر؟! والله أعلم"[٣٠].

القسم الثاني: آيات أقسم الله بها، تنويهًا بأهميَّة المقسم به وهو اللَّيل، وإرشادًا للخلق على ذلك.

وعدد الآيات الواردة في ذلك سبع آيات:

١. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾[المدثر: ٣٣].

٢. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾[التكوير: ١٧].

٣. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾[الانشقاق: ١٧].

٤. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾[الفجر: ٤].

٥. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾[الشمس: ٤].

٦. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾[الليل: ١].

٧. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[الضحى: ٢].

والمتأمل في سُوَر هذه الآيات الكريمة يجدها من السُّوَر المكيَّة التي تتميَّز بطابع القوَّة، وقِصَرِ الآيات، فسياق بعض هذه الآيات كان خطابًا للكُفَّار المعاندين لوحدانيَّة الله سبحانه وتعالى، ودعوة لهم في التفكُّر في خلق الليل والنهار.

(٢٩) تفسير الرَّازي (٢٧٦/٢٦).
(٣٠) تأويلات أهل السُّنَّة (٨٣/٩).

وجاء القسم باللَّيل في الآية الأولى مُقيَّدًا بظرفٍ خاصٍ وهو (إِدْبَاره وتولِّيه)[٣١]، وفي معنى الإدبار المذكور في الآية تفسيران:

الأول: (التولِّي) أي: والليل إذا ذهب وولَّى. وبه قال: ابن عباسٍ رضي الله عنهما[٣٢]،وقتادة، واختاره الطبري[٣٣]، والسَّمرقندي(رحمه الله ٣٧٣هـ)[٣٤]، ومكيّ(رحمه الله ٤٣٧هـ)[٣٥].

الثاني: (الإقبال) أي: أَقْبَلَ بظلامه وتَبِعَ النَّهار. قاله أبو عبيدة[٣٦].

وقد رجَّح ابن القيِّم (رحمه الله ٧٥١هـ) معنى التولِّي بانصرام الليل وإقبال النَّهار لأمرين:

أولهما: لأنَّهما متعاقبان من غير فَصْلٍ، بخلاف معنى إقبال اللَّيل وإقبال النَّهار فبينهما فَصْلٌ.

ثانيهما: أنَّه أعظم في الدلالة، وأبْلَغ في العِبْرة[٣٧].

وورد في الآية قراءتان[٣٨]:

الأولى: (إِذْ أَدْبَر) وهي قراءة **نافع**(رحمه الله ١٦٩هـ)، **وحفص** (رحمه الله ١٨٠هـ) **عن عاصم**(رحمه الله ١٢٧هـ)، **وحمزة**(رحمه الله ١٥٦هـ).

الثانية: (إذا دَبَر) وهي قراءة **ابن كثير**(رحمه الله ١٢٠هـ)، **وأبو عمرو**(رحمه الله ١٥٤هـ)، **وابن عامر**(رحمه الله ١١٨هـ)، **والكسائي**(رحمه الله ١٨٩هـ)، **وأبو بكر**(رحمه الله ١٩٣هـ) **عن عاصم**.

واختلف في معنى القراءتين على قولين:

الأول: أنَّهما لغتان بمعنى واحد، يُقال: دبر الليل وأدبر إذا تولَّى ذاهبًا. واختاره الطبري[٣٩]، ومكيّ[٤٠].

---

(٣١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، للخطيب (١٣٠٠/١٥).
(٣٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣٣٨٤/١٠) برقم: ١٩٠٤٠.
(٣٣) تفسير الطبري (٣٢/٢٤).
(٣٤) بحر العلوم (٥١٨/٣).
(٣٥) الهداية إلى بلوغ النهاية (٧٨٤٢/١٢)، والعمدة في غريب القرآن (٣٢٣).
(٣٦) النكت والعيون (١٤٦/٦).
(٣٧) التبيان في أقسام القرآن (١١٩).
(٣٨) السَّبعة، لابن مجاهد (٦٥٩)، والتيسير، للداني (٢١٦).
(٣٩) تفسير الطبري (٣٣/٢٤).
(٤٠) الهداية إلى بلوغ النهاية (٧٨٤٢/١٢)، والعمدة في غريب القرآن (٣٢٣).

الثاني: أنَّ (دَبَرَ) بمعنى خَلَفَ، و(أَدْبَرَ) بمعنى ولَّى. وإلى هذا المعنى ذهب أبو عبيدة وابن قتيبة(رحمه الله٢٧٦هـ)(٤١).

وعلى أيِّ تفسيرٍ فُسِّرت به الآية الكريمة، فإنَّ سِباق الآية يدلُّ على أنَّها كانت في معرض الحديث مع كفَّار قريش المعاندين المكذِّبين لأمر البعث والنشور، فجاء السِّياق القرآني رادعًا وزاجرًا لهم، قال ابن القيِّم: "وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة وهي: القمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر، على المعاد لِمَا في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه، فإنَّه يتضمَّن كمال قُدرته وحِكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته الذي هو حاصلٌ بِسَيْرِ الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء فصول السَّنة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته؛ فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به الرسل كلهم عنه، فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها وجعلها للفطر تارة، والسمع تارة، والمشاهدة تارة"(٤٢).

وأختم الحديث عن هذه الآية بذكر فائدتين منها:

١. قال الماتريدي:"وفيه أن منشئ الليل والنَّهار واحد، وأنَّ الخلائق بجملتهم تحت سلطانه وتدبيره، يحكم فيهم ما يشاء، ويفعل ما يُريد"(٤٣).

٢. في الآية لفتُ الانتباه حول أهميَّة المقسم به وهو خروج ظلام الليل ودخول ضوء النَّهار، في حالةٍ عجيبةٍ تعجز العقول في إدراك حقيقتها مع تكرُّرها كل يوم وليلة؛ لتدل دلالة واضحة على عظمة الله جلَّ جلاله وإبداعه للكون.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾[التكوير: ١٧]، وجاء في معنى (عَسْعَس) مثل ما جاء من معنى في لفظة (الإدبار)، فإمَّا أن يكون معنى الآية: أَقْبَلَ الليل بظلامه، أو تولِّيه وإدباره.

ورجَّح ابن جرير معنى التولِّي والذهاب في الآيتين(٤٤)، بخلاف ابن كثير (رحمه الله ٧٧٤هـ) فقد اختار معنى الإقبال هنا، بحجَّة أنَّه الأنسب في هذا المقام، وقال: "كأنَّه أقسم

---

(٤١) انظر: زاد المسير (١٥٢/٨).
(٤٢) التبيان في أقسام القرآن (١٧٢).
(٤٣) تأويلات أهل السُّنَّة (٣٢٢/١٠).
(٤٤) تفسير الطبري (٢٥٧/٢٤).

بالليل وظلامه إذا أقبل وبالفجر وضيائه إذا أشرق كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾[الليل: ١- ٢] وقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[الضحى: ١- ٢]"(٤٥).

وقد أقسم الله عزَّ وجلَّ هنا بالفترة الزمنيَّة المذكورة بالإدبار أو الإقبال الخاص بالليل(٤٦)، مع قوله ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[التكوير: ١٨]ليلفت الأذهان لحقيقة النوم والاستيقاظ المتكرِّرة كل يوم، وربطها بحقيقة الموت والنشور، فالسُّورة مكيَّة، ولحاق الآيات يُبيِّن ذلك من مخاطبة كفَّار قريش عن جبريل عليه السَّلام، ونبينا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، وعن الغيب.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾[الانشقاق: ١٧]، والوَسَقُ هنا بمعنى: الجمْع والحمْل(٤٧)، أي: واللَّيل وما حمل وجمع فيه من الظُّلمة والدَّواب والنجوم وغيرها(٤٨).

والحكمة من تخصيص اللَّيل والنَّهار في هذا القَسَم: التنبيه على ما فيهما من منافع(٤٩).

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾[الفجر: ٤]، والمقصود من لفظ اللَّيل: العموم على الأرجح(٥٠)، وفي معنى (يَسْرِ) ذُكرت أوجهٌ؛ الأكثر على أنَّ المعنى: ذهاب اللَّيل(٥١).

وينطبق على هذه الآية ما ذُكِر في الآية الأولى.

الآية الخامسة والسادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾[الشمس: ٤]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾[الليل: ١]، وفيهما ذِكْر غشيان اللَّيل، وهو دخول الظلام على الكون والمخلوقات، وستره لضياء الشمس الذي كان ساطعًا في النَّهار(٥٢).

---

(٤٥) تفسير القرآن العظيم (٣٣٦/٨).

(٤٦) قال الماتريدي في تأويلات أهل السُّنَّة (٣٢٢/١٠): "فجائز أن يكون ذكر آخر الليل يقتضي ذكر أوله، وذكر أول النهار يقتضي ذكر النهار كله؛ فيكون القسم بهما قسما بالليل كله، والنهار كله".

(٤٧) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (١٠٩/٦) مادة: (وسق). وقال: "الواو والسِّين والقاف: كلمة تدلُّ على حمل الشيء. وَوَسَقَتِ العَيْنُ الماءَ: حَمَلَتْهُ. قال الله سبحانه: {والليل وما وسق} [الانشقاق: ١٧]، أي: جمع وحمل".

(٤٨) تأويلات أهل السُّنَّة (٤٧٦/١٠).

(٤٩) المرجع السابق.

(٥٠) تفسير القرطبي (٤٢/٢٠).

(٥١) تفسير الطبري (٤٠١/٢٤)، و تفسير القرطبي (٤٢/٢٠).

(٥٢) انظر معنى الغشيان في: النكت والعيون (٢٨٦/٦).

قال قتادة (رحمه الله ١١٧هـ): "قوله ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾[الليل:١-٢] قال: آيتان عظيمتان يكوّرهما الله على الخلائق"(٥٣).

وفيهما من الدلالة على تعظيم أمر الليل، والتفكُّر والتدبُّر في تعاقبه مع النَّهار؛ ليَدلَّ على وجود يدٍ عُظمى تُديرُ هذا الكون وَفق نظامٍ دقيقٍ مطَّرد ليس به خلل ولا اضطراب، وأنَّ الذي يُدير هذا الفلك قادرٌ على إدارة حياة البشريَّة(٥٤).

الآية السابعة: قوله تعالى ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[الضحى:٢]، وهي كسابقتها من حيث المعنى والقسم وأهميَّته، ولكنَّ المفسِّرين ذكروا أحد احتمالين:

الاحتمال الأول: أنَّ المقصود باللَّيل: ظلمته.

الاحتمال الثاني: أنَّ المقصود باللَّيل: اللَّيل كلّه.

وكلا الاحتمالين متعلِّقٌ بالمراد من الضحى، هل هو ضوء النَّهار أم هو كناية عن النَّهار كلّه، فإن كان الأوَّل فالأوَّل، وإن كان الثاني فالثاني.

قال الماتريدي: "فيخرج القَسَم به على أنَّ ظلمة اللَّيل تَسْتُر الخلائق كلّهم في طَرْفَةِ عَين، وكذلك ضوء النَّهار يَكْشِف السِّتْر، ويجلي بطرفة عين جميع الخلائق، من غير أنْ يعلم أحدٌ ثقل ذلك السِّتر أو خفَّة ذلك الضوء، فأقْسَم بذلك لعظيم ما فيهما من الآية.

وإن كان المراد منه نَفْس اللَّيل والنَّهار؛ فالقَسَم بهما لِمَا جعل فيهما من المنافع الكثيرة"(٥٥).

القسم الثالث: آيات وصفت اللَّيل على أنَّه الزَّمن، أو أنَّه جزء منه. وجاء ذلك في عشر مواضع(٥٦)، منها:

قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[البقرة: ٢٧٤].

وقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[يونس: ٢٧].

---

(٥٣) تفسير الطبري (٤٦٥/٢٤).

(٥٤) انظر: تأويلات أهل السُّنَّة (٥٤٨/١٠)، وفي ظلال القرآن (٣٩٢١/٦).

(٥٥) تأويلات أهل السُّنَّة (٥٥٦/١٠).

(٥٦) وهذه المواضع هي: [البقرة: ٢٧٤]، [يونس: ٢٤]،[يونس: ٢٧]، [هود: ٨١]، [الرعد: ١٠]، [الحجر: ٦٥]، [سبأ: ١٨]، [سبأ: ٣٣]، ، [الدخان: ٢٣]، [نوح: ٥]، .

ويُلاحظ في هذه الآيات الكريمات وأخواتها أنَّ اللَّيل جاء في الاستعمال القرآني مرادًا به الزمن أو جزء منه.

ففي الآية الأولى: تحريض للمؤمنين وحثٌّ لهم في أن يَعمُّوا أوقاتهم وأحوالهم بالصَّدقة، وأن يُعجِّلوا في قضاء حاجة المحتاج ولا يُؤخروها، وهذا التفسير على الأخذ بعموم الآية(٥٧).

وفي الآية الثانية: شبَّه الله وجوه العصاة والذين يكسبون السَّيئات بجزءٍ وقطعةٍ من الليل، والمقصود الظُّلمة الحاصلة في ذلك الوقت، وعليه: فقد شبَّه ظلمة المعاصي التي تعلو وجوههم بظلمة الليل بجامع عدم الاهتداء.

وفي لفظ (قطعًا) قراءتان:

الأولى: قراءة العامَّة (قِطَعًا) بفتح الطاء(٥٨)، على معنى جمع قطعة.

الثانية: قرأه بعض المتأخرين من القرَّاء(٥٩): (قِطْعًا) بسكون الطاء، بمعنى: كأنَّما أُغشيت وجوههم سوادًا من الليل، وبقيةً من الليل، ساعةً منه، كما قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[سورة هود:٨١/سورة الحجر:٦٥]، أي: ببقيَّة قد بقيت منه(٦٠).

فالقِطْع: "جزء من الليل، يُقال: سِرْنَا بقِطْع مِن الليل، أي: بجزءٍ من الليل"(٦١).

كما إنَّ الأمر تكرَّر في نفس السورة في دلالة لفظ القِطْع، أي: فأسْرِ بأهلك ببقيَّة من الليل، قيل هو: ثلث الليل الآخر؛ لأنَّه هو ما يتبقى من اللَّيل(٦٢)، وقد بيَّن الله عزَّ وجلَّ في سورة القمر أن الأمر كان سَحَرًا، فقال تعالى ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾[القمر: ٣٤].

والحكمة وراء الأمر بالإسراء سَحَرًا: أن يسبقوا نزول العذاب الذي موعده الصُّبح(٦٣)، أو لكيلا يُلاقي مُمَانعةً من قومه فيَشُقَّ عليه دفاعهم(٦٤).

---

(٥٧) وهو الذي رجَّحه الرَّازي، انظر تفسيره: (٧١/٧).
(٥٨) وهي قراءة نافع وأبو عَمْرو وعاصم وابن عامر وحمزة، انظر: السَّبعة (٣٢٥).
(٥٩) وهي قراءة ابن كثير والكسائي، انظر: السَّبعة (٣٢٥).
(٦٠) تفسير الطبري (٧٦/١٥) بتصرُّف.
(٦١) تأويلات أهل السُّنَّة (٣٥/٦).
(٦٢) المرجع السابق (١٦٣/٦).
(٦٣) تفسير الرَّازي (٣٨١/١٨).
(٦٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٣٢/١٢).

وقد بيَّن الله تعالى أنَّه عالم بالغيب والشهادة؛ لكي يُحذِّر العباد من اقتراف المعاصي، ويُوقظ شعور الخوف منه سبحانه وتعالى، فسواءٌ أكان حديث المرءِ في نفسه أَمْ جَهَر به عند النَّاس؛ كلاهما سواءٌ في عِلْم الله جلَّ جلاله(٦٥).

وكذلك الأمر في الاستخفاء باللَّيل والظهور في النَّهار؛ كلاهما سواء عند الله، فهو العليم المطَّلع على أحوال عباده في كلِّ وقت.

كما أُضيف المكر لليل والنَّهار وحُذف المضاف إليه لوقوع مكر الكفرة فيه بصَدِّ المستضعفين عن الهدى والحقِّ(٦٦). وفي الإضافة إشارة إلى استغلال الكفرة للوقت والزمن الذي محلُّه الليل والنَّهار، وبذلهم الجهد فيهما من أجل صدِّ النَّاس عن الهدى.

وضرب الله المثل، فشبَّه الحياة الدنيا بالماء النازل من السماء الذي يحيي الأرض والنبات، ثم إذا فرح أهلها بما فيها؛ أتاها "عذابنا، سُمِّي أمرًا؛ لأنَّه بأمره أتاه.

وفيه: أنَّه لم يأته عن غفلة وسهو، ولكن عن علم وأمر؛ عظة لهم وتنبيهًا، ألا ترى أنَّه قال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[يونس: ٢٤] كأنَّ الآيات في هذا الموضع المواعظ، أي: فيما ذكر من ضرب مثل الحياة الدنيا بالنبات والزرع الذي ذُكر عِظة وتنبيه لمن تفكَّر فيه، والله أعلم"(٦٧).

ومنها: إخبار الله عزَّ وجلَّ بأنَّه أوحى إلى كليمه موسى عليه السَّلام أن يُدلِج ببني إسرائيل(٦٨). وفيه: أنَّ من فوائد الليل الهرب من العدو فيه لوجود العتمة والظلمة التي تمنع من تمام الإدراك والطلب.

وورد في قصَّة نوح عليه السَّلام أنَّه لم يألُ جهدًا في دعوة قومه للتوحيد وعبادة الله الواحد، فقد ذُكرت الأمكنة والأزمنة في إرشادهم. وقوله عليه السَّلام يخرج على أحد وجهين:

إن كان قبل الإخبار بأنَّه ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[هود: ٣٦]، فهو على التعرُّض منه؛ لاستنزال اللين والرحمة، لعلَّ الله تعالى بلطفه أن يُلين قلوبهم فينقادوا للحق.

وإن كان بعده، فهو على إبلاء العذر، وأنَّه لَم يُقصِّر في دعوة قومه(٦٩).

(٦٥) تأويلات أهل السُّنَّة (٢٨٩/٩).
(٦٦) تفسير القرطبي (٣٠٢/١٤).
(٦٧) تأويلات أهل السُّنَّة (٣٠/٦).
(٦٨) بحر العلوم (٢٧٠/٣).
(٦٩) تأويلات أهل السُّنَّة (٢٢٣/١٠) بتصرف.

كما أنّ الله عزَّ وجلَّ بيَّن نعمته على أَهل سبأ بذكر حال القرى من حولهم وكثرت عمارتها خارج بلدهم؛ لأنَّه سبق ذِكر النعمة والنقمة عليهم داخل البلد فيما سبقها من آيات.

وكان من نعمته سبحانه عليهم بأن جعل بينهم وبين الشام قرى يَظهر بعضهم لبعض، ويُرى سواد القرية من القرية الأُخرى، ولذلك امتنَّ الله عليهم أيضًا بأن جعل السَّير فيها مقدَّرًا، فالأماكن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدَّرة، وفي قوله ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾[سبأ: ١٨]إشارة إلى اختياركم المسير باللَّيل أو النَّهار لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة، فإنَّ بعضها يسلك ليلا، لئلا يعلم العدو بسيرهم، وبعضها يسلك نهارا لئلا يقصدهم العدو، إذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة(٧٠).

القسم الرابع: آيات حثَّت على التفكُّر والتدبُّر في قدرة الله تعالى وعظمته في خلق اللَّيل والنَّهار. وقد ذُكرت في مواضع كثيرة، منها:

١) الحثُّ على التفكُّر تصريحًا، كقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾[آل عمران: ١٩٠ – ١٩١].

ففي هذه الآية امتدح الله عباده على عمل اللِّسان وعمل القلْبِ، فبعد أن بيَّن أنَّهم يذكرونه في كل الأحوال، أردف ذلك بأنَّهم يُعملون عقولهم وأبصارهم في خلق السماوات والأرض وما بينهما(٧١).

٢) الحثُّ على التفكُّر تلميحًا، كقوله تعالى ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾[آل عمران: ٢٧].

و"حقيقة «تُولِج» تُدخل، وهو هنا استعارة لتعاقب ضوء النَّهار وظلمة اللَّيل، فكأنَّ أحدهما يدخل في الآخر، ولازدياد مدَّة النَّهار على مدَّة اللَّيل"(٧٢).

ولقد استعرض الله عظمته وقدرته على الخلْقِ؛ التي هي نتيجة التفكُّر في آياته الكونيَّة، فمجرَّد التفكير في تعاقب ضوء النَّهار وظلمة اللَّيل يُوصل إلى حقيقة تفرُّد الله بالخَلْق والعبادة.

---

(٧٠) تفسير الرَّازي (٢٢٣/١٠) بتصرف.
(٧١) القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز، للسَّمين الحلبي، تحقيق سورة آل عمران (٣٨٥).
(٧٢) التحرير والتنوير (٢١٤/٣).

٣) الامتنان على الخلق وقت المحاجَّة، كقوله تعالى ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾[النازعات: ٢٧ – ٢٩]. **والإغطاش:** جعله غاطشًا، فأغْطَش بمعنى: أظلم، والمعنى: أنَّه خصَّ اللَّيل بالظلمة، وجعله ظلامًا[٧٣].

القسم الخامس: آيات لِيالٍ مخصوصة بالذِكْرِ. وقد ذُكرت في تسعة مواضع[٧٤]:

القسم السادس: آيات تحدَّثت عن العبادة في اللَّيل وحثَّت عليها، وقد ذُكر في ثلاثة عشر موضعًا:

١. قال الله تعالى ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[آل عمران: ١١٣].

٢. قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩].

٣. قال تعالى ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[طه: ١٣٠]. [٧٥]

وخلاصة ما تحدَّثت عنه هذه الآيات في مواضعها هو الحثّ على العبادة في اللَّيل من قيام، وتلاوة للقرآن، وذِكر لله تعالى، وعلى التفصيل كما يلي:

وصف الله حال المذكورين في آية آل عمران بأنهم يتلون كتاب الله في الصلاة، بدليل قوله (وهم يسجدون)، "وهذا الأسلوب أبلغ وأبين من أن يقال: يتهجَّدون؛ لأنَّه يدلُّ على صورة فعلهم"[٧٦].

وفي آية الإسراء قدَّم المجرور (ومن اللَّيل) على متعلّقه اهتمامًا به وتحريضًا عليه، ونبَّه على أهميَّة التهجُّد وتلاوة القرآن فيه، مع أنَّ الآية خاصَّة بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم من ناحية الأمر بوجوب التهجُّد، والجزاء المذكور في الآية[٧٧].

---

(٧٣) المرجع السابق (٣٠/٨٥).

(٧٤) سوف أقتصر على تعداد الآيات؛ بسبب وجود مبحثٍ خاصٍّ للحديث عنها وهو المبحث السابع، والمواضع هي: **[البقرة: ٥١]، [البقرة: ٥١]، [البقرة: ١٨٧]، [الأعراف: ١٤٢]، [الدخان: ٣]، [القدر: ١، ٢، ٣].**

(٧٥) وبقية المواضع هي: **[الأنبياء: ٢٠]، [الزمر: ٩]، [فصلت:٣٨]، [ق: ٤٠]، [الذاريات: ١٧ – ١٨]، [الطور: ٤٩]، [المزمل: ٢]، [المزمل: ٦]، [المزمل: ٢٠]، [الإنسان: ٢٦].**

(٧٦) التحرير والتنوير (٤/٥٨).

(٧٧) التحرير والتنوير (١٥/١٨٤) بتصرّف.

وفي آية طه قصد بالتسبيح التهجُّد، وحمله بعض العلماء على صلاة المغرب والعشاء[٧٨]، وتكرَّر الأمر في آية الطور.

وفي آية الأنبياء حديثٌ عن الملائكة بأنَّهم لا يفترون عن ذِكْر الله تعالى وتعظيمه وتنزيهه والصلاة في كلِّ الأوقات؛ ولذلك قال (اللَّيل والنَّهار)، وتكرَّر الأمر في آية فصِّلت.

وفي آية الزمر امتدح الله تعالى من عباده المطيعين لأوامره خوفًا منه ورجاءً فيما عنده، فهم يقضون ساعات ليلهم ما بين السجود والقيام، ففي السجود التلذُّذ بالمناجاة والتذلُّل لله سبحانه، وفي القيام التلذُّذ بتلاوة كتاب الله جلَّ جلاله.

وفي الآية من سورة(ق)امتدح الله تعالى بعضًا من عباده بأنَّهم لا ينامون باللَّيل إلاَّ قليلاً؛ ووصفهم بكثرة العمل وسهر اللَّيل ومكابدته فيما يُقربهم منه سبحانه[٧٩].

وفي الآية من سورة الذاريات أمرٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقيام أغلب اللَّيل، أو نصفه أو أقل بقليل من نصفه، على التخيير بين هذه المنازل[٨٠].

وفي الآية من سورة الطور إيضاح وبيان للسبب والعلَّة من جعل صلاة اللَّيل، وهي أنَّها أشدُّ ثباتًا لقلب المؤمن، وأفضل لقراءة القرآن[٨١].

وفي آيات سورة المزمل إخبارٌ عن أحوال قيام النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وطائفة من أصحابه في اللَّيل، وعن سعة علم الله وعفوه وتخفيفه عليهم.

وفي الآية الأخيرة أمرٌ بالسجود والتسبيح - على ما سبق -،وفيه إشارة إلى أنَّ اللَّيل وقت تفرُّغ من الأشغال، فهو أنفع للقلب والفِكر.

ونكون بهذا قد انتهينا من هذا المطلب الذي اختصَّ بالحديث عن تصنيف آيات اللَّيل في القرآن الكريم.

---

(٧٨) تفسير ابن كثير (٣٢٦/٥).
(٧٩) تفسير الطبري (٤١٢/٢٢).
(٨٠) المرجع السابق (٦٧٨/٢٣).
(٨١) انظر: تفسير البغوي (٢٥٣/٨، ٢٥٤).

المطلب الثالث: ألفاظٌ ذات صلة باللَّيل.

إنَّ المتتبِع للألفاظ التي لها صلة باللَّيل في القرآن يجدها إمَّا صفةً له أو صفة مضادة لما يُقابله:

١) الظلمة: ومن المعاني التي وردت في كتب المفسِّرين والوجوه والنظائر مفسَّرة بأنها وصفٌ لليل، ومن الآيات الدالة على ذلك:

* قال تعالى ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾[الأنعام: ١].

روى الطبري عن السُّدِّي " قال: الظلمات ظلمة الليل، والنور نور النَّهار"(٨٢). وجَعَل هنا بمعنى خَلَقَ، أي: خَلَق اللَّيل والنَّهار(٨٣).

وذكر ابن الجوزي أنَّ المراد بالظلمات: الليل(٨٤).

* قال تعالى ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧]. فقوله ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾يعني: ظُلْمة الليل، وظُلْمة الماء، وظُلْمة بطن الحوت(٨٥).

فالملاحظ من خلال الآيتين السابقتين أنَّ الظلمة وصفٌ قُصِدَ به الليل لحلوله فيه، وارتباطه به مجيئًا وذهابًا.

٢) النَّهار: وهو من الألفاظ المقابلة للفظة الليل، وغالب آيات الليل جاءت مقرونة بلفظ النَّهار، ومن ذلك:

* قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[البقرة: ١٦٤].

* وقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[آل عمران: ١٩٠].

(٨٢) تفسير الطبري (٢٥٠/١١).
(٨٣) بحر العلوم (٤٣٣/١).
(٨٤) نزهة الأعين النواظر (٤٢٤).
(٨٥) الوجوه والنظائر، لمقاتل (٧٩).

والنَّهار: ضدّ الليل كما سبق في تعريف الليل في اللغة، كما يُقال فيه ما قيل في مفهوم الليل معكوسًا.

٣) النُّور: وهو من الألفاظ المقابلة مباشرة للفظة الظلام، فالنُّور عكس الظُّلمة، وأُتي به هنا لأنَّه خاصيَّة للنَّهار كما أنَّ الظلمة خاصيَّة الليل.

ولفظ النُّور في القرآن الكريم قد يُراد منه المعنى الحسِّي -وهو المراد هنا-، وقد يُراد منه المعنى المعنوي، حاله حال لفظ الظلام.

وأغلب استعمالات النُّور والظُّلمة في القرآن من قبيل المعنى المعنوي، ما عدا قوله تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام: ١]، فإنَّ اللفظ استُخدِمَ للمعنى الحسِّي.

وسبق رواية الطبري عن السُّدِّي قوله "الظُّلمات ظُلمة اللَّيل، والنُّور نور النَّهار"(٨٦)

وورد التعبير بلفظ النُّور للقمر الذي لا يكون إلاَّ باللَّيل في قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[يونس: ٥].

والحكمة في ذلك التعبير -والله أعلم- هو التفريق بين ضياء الشمس ونور القمر، "وذلك أنَّ الضوء نُورٌ ذاتِي، ينبعث من جسم مُشعٍ له، بفعل الحرارة النّاريّة المتوقّدة في هذا الجسد، ومن هنا كان الضوء مشتملا على حرارة دائمًا، فلا ضوء إلاَّ عن حرارة مُتوقِّدة، ولا حرارة إلاَّ ومعها ضوء.

وضوء الشمس ضوء ذاتي، صادر من جسم ناري مُلتهب، أمَّا نور القمر فهو غير ذاتِيّ؛ لأنَّه صادر من جسم بارد معتم، وقع عليه ضوء الشمس فانعكس منه على الأرض هذا النور الذي لا يحمل شيئًا من حرارة الضوء.

الضوء: مُتوهّج، مُتّقد، متموج، مضطرب. والنور: لطيف، هادئ"(٨٧).

٤) الضياء: وهو من الألفاظ المقابلة للفظ الظُّلمة المختص بالليل وقد ورد لفظ الضياء في القرآن ثلاث مرات، في آية سورة يونس السابقة، وقد سبق شرح الضياء فيها مع النُّور.

---

(٨٦) الصفحة السابقة.
(٨٧) التفسير القرآني للقرآن (٩٥٩/٦).

وأمَّا الآية الثانية: فقد ورد الضياء فيها بالمعنى المعنوي، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[الأنبياء: ٤٨](٨٨).

والآية الثالثة: قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾[القصص: ٧١].

فقد أمر الله عزَّ وجلّ نبيَّهُ صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يقول للمشركين وقت المحاجَّة ما بالكم لو جعل الله جلَّ جلاله الليل بظلامه دائم الحلول عليكم من غير انقطاع لا نهار فيه.

وفي الآية دليل على عَظَمة الخالق سبحانه وتعالى، وحُسْنِ تدبيره لشئون الكون والخَلْقِ، وتيسير ما يوافق مصالحهم من الرزق بالنَّهار والراحة باللَّيل.

المبحث الثاني: الليل آية كونيَّة

المطلب الأول: الليل نعمة إلهيَّة

إنِّ من رحمة الله عزَّ وجلّ بخلقه أن سيَّر ونظَّم لهم أمور حياتِهم، وجعل الليل والنَّهار شاهدين على ذلك، فقال تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[النحل: ١٢]،"ووجهُ تسخير هذه الأشياء لنا: هو أنَّ الله خلقها، وجعل فيها منافع للخلق؛ فجعل في النَّهار معاشًا للخَلْقِ وتقلُّبًا فيه يتعيَّشون، وجعل اللَّيل راحةً لَهم وسَكَنًا، ينتفعون بهما، وكذلك ما جعل في الشمس والقمر والنُّجوم من المنافع: من إنضاج الفواكه والثمرات، وإدراك الزُّروع وبلوغها، ومعرفة الحساب والسنين والأشهر، ومعرفة الطُّرق والسلوك بها، وغير ذلك من المنافع ما ليس في وسع الخَلْقِ إدراكه"(٨٩).

ولذلك قال الله تعالى بعد هذه الآية ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[النحل: ١٨]، فجعل الليل من ضمن النِّعم المحكيَّة. ولليل فوائد عظيمة ذكرها الله عزَّ وجلَّ في القرآن الكريم، ومن هذه الفوائد:

---

(٨٨) انظر تفسير الإمام الطبري للضياء، فقد فسَّره بالتوراة التي أضاءت لهما ولمن اتبعهما أمر دينهم، وأنَّه لم يُقصد بذلك في هذا الموضع ضياء الإبصار (٤٥٣/١٨).

(٨٩) تأويلات أهل السُّنَّة (٤٨٣/٦) بتصرف.

١. أنَّه جعل الليل سكنًا ولباسًا، والنوم فيه سباتًا. وهذه منَّة عظيمة مِن الله تعالى؛ إذ السُّكون راحة لكل مُتحرِّك بالنَّهار، فتهدأ به النفوس من التعب وتستقرُّ الأبدان[٩٠]، قال تعالى ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا ﴾[الأنعام: ٩٦].

كما أنَّه سبحانه وتعالى جعل النوم سباتًا، أي: راحةً لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال، قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴾[الفرقان: ٤٧]. وأصل السبات من التَمدُّد. وقيل: للنوم سبات؛ لأنه بالتَمدُّد يكون، وفي التمدُّد معنى الراحة[٩١].

وفي الآية "إشارة إلى أنَّ النوم ظاهرة غير ظاهرة الراحة والسكون، فقد يستريح الإنسان ويسكن، ولكن وجوده كلّه حركة عن طريق العقل، الذي لا يكفّ عن العمل والتفكير، إلا بالنوم المستغرق، الذي يسكن فيه العقل، كما تسكن الجوارح، فالسبات هو السكون التام"[٩٢].

ووصف سبحانه في الآية السابقة الليل بأنَّه كاللباس الذي يستر البَدن ويُواريه عن الأنظار، فكأنَّ الليل إذا دخل بظلامه غطَّى كل شيء وسَتَرَه لكي ترتاح معه خلايا الكائنات الحيَّة وتستعدّ لمزاولة عملها بنشاط في النَّهار[٩٣].

وقال تعالى ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[النمل: ٨٦]. وتكرَّر جَعْلُ اللَّيل للسكن في سورة يونس [٦٧]، وسورة القصص [٧٣]، وسورة غافر [٦١].

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾"أي: فيه ظلامٌ تَسْكُن بسببه حركاتهم، وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نَصَبِ التعب في نهارهم"[٩٤].

٢. المصالح الدنيوية المترتبة على تعاقب اللَّيل والنَّهار واختلافهما، وهذه المصالح مُسخَّرة للإنسان لكي تستمرَّ دورة الحياة لديه.

ولذلك حثَّ الله تعالى أولي الألباب على التفكُّر في اختلاف الليل والنهار، قال تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[آل عمران: ١٩٠].

---

(٩٠) انظر: تفسير الطبري (٥٥٧/١١)، والهداية إلى بلوغ النهاية (٢١١٣/٣).
(٩١) تفسير القرطبي (٣٨/١٣) بتصرف.
(٩٢) التفسير القرآني للقرآن (٣٥/١٠).
(٩٣) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣٠٩٣/٥).
(٩٤) تفسير ابن كثير (٢١٥/٦).

قال السَّمين الحلبي (رحمه الله ٧٥٦هـ): "والمراد باختلاف اللَّيل والنَّهار: تعاقبهما، وذهاب هذا ومجيء الآخر، كقوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾[الفرقان: ٦٢]"(٩٥).

وفائدة تعاقب اللَّيل والنَّهار وزيادة ساعات أحدهما على الآخر في فصول السَّنة الأربع: اختلاف الثمار وتنوعها بحسب الفَصْل التي هي فيه، فهناك ثمار لا تأتي إلاَّ في الصيف، وأخرى في الشتاء، وهكذا.

ولذلك قال ابن كثير في قوله تعالى ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ﴾[آل عمران: ٢٧]: "أي: تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السَّنة: ربيعًا وصيفًا وخريفًا وشتاءً"(٩٦).

وقال سيِّد قُطب(رحمه الله ١٣٨٥هـ): "وجعل حاجتهم إلى النشاط والعمل يُلبِّيها الضَّوء والنَّهار، وحاجتهم إلى النوم والراحة يُلبِّيها اللَّيل والظَّلام، مثلهم مثل جميع الأحياء على ظهر هذا الكوكب على نسب متفاوتة في هذا ودرجات، وكلها تجد في نظام الكون العام ما يلبي طبيعتها ويسمح لها بالحياة"(٩٧).

٣. تجدُّد دورة الحياة واستمرارها، فلو كانت الحياة ليلاً لتعطَّلت مصالح الخَلْقِ، ولو كانت نهارًا لما وُجد النوم والسَّكن والسُّبات، وكذلك الأمر في الكائنات الحيَّة الأخرى كالنبات، فهي تحتاج للظلام كما تحتج للنور، فتبارك الله أحسن الخالقين، وقد جاءت الإشارة في ذلكبقوله تعالى ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾[القصص: ٧١].

فوجود اللَّيل أو النَّهار للأبد بمفرده يترتَّب عليه حصول الضَّرر بالخَلْق، وحصول السآمة والملل والتعب(٩٨)، فكان من حكمة الله وقضاءه أن جعلهما متعاقبين.

٤. معرفة الأزمنة والأوقات، والاستدلال بها على الطرقات، قال تعالى ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[النحل: ١٦].

(٩٥) القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز، تحقيق سورة آل عمران (٣٧٥).
(٩٦) تفسير ابن كثير (٢٩/٢).
(٩٧) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٢٧٦٤/٥).
(٩٨) انظر: تفسير ابن كثير (٢٥٢/٦).

وقال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾[يونس: ٥]، وقال تعالى ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾[الإسراء: ١٢].

ولا شك في أنَّ لمعرفة الزمن والوقت فائدة عظمى للمسلم وهي تنظيم وقته، وتحديد أهدافه وأعماله في اليوم والليلة.

قال ابن كثير: "يَمتنُّ تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك"(٩٩).

المطلب الثاني: التَفَكُّر في آية اللَّيل

إنَّ المتأمل في كتاب الله عزَّ وجلَّ يجد أنَّه حثَّ على التدبُّر والتفكُّر في خلْق اللَّيل والنَّهار، وامتدح المتدبِّرين بأنهم أصحاب العقول والألباب، وتارة وصفهم بالمتقين، وما ذلك إلا لأهميَّة التفكُّر في خلقهما.

وقد ورد الحثُّ على التفكُّر في اختلاف الليل والنهار الذي هو بمعنى التعاقب(١٠٠) في خمسة مواطن في القرآن الكريم، قال تعالى ﴿إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِى تَجۡرِى فِى ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤].

---

(٩٩) تفسير ابن كثير (٤٩/٥).

(١٠٠) أي يأتي كل منهما خلف الآخر، كما قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾[الفرقان: ٦٢].

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾[البقرة: ١٦٣]؛ لتدل بالدليل القاطع على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة، بعد ذكر صورٍ من مخلوقات الله وقدرته فيها وتسخيرها للخَلْقِ(١٠١).

ويتكرَّر المشهد مرَّة أُخرى في القرآن عند قوله تعالى﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[آل عمران: ١٩٠]؛ولذلك قال النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لَمَّا أُنزلت عليه الآية: "وَيْلٌ لِمَن قرأها ولَمْ يتفكَّر"(١٠٢).

وقد "جعل الله آية اللَّيل والنَّهار للتدبُّر والنَّظر المؤديين إلى الاستدلال على قُدرة صَانِعِهَا، المدبِّر لأمرها"(١٠٣). وسُئل الأوزاعي (رحمه الله ١٥٧هـ): ما غَايَة التفكُّر فِيهِنَّ؟ قال: يقرؤهن وَهُوَ يعقلهن(١٠٤).

وكذلك الأمر في آية سورة يونس، بعدما ذكر الحكمة في التفريق بين وصف الشمس بالضياء، وبين وصف القمر بالنور.

والتفكُّر في آية اللَّيل والنَّهار يزداد روعةً حينما يربط القرآن بينهما وبين الحياة والممات، فقال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[المؤمنون: ٨٠]،"ثم إنَّه سبحانه حذَّر من تَرْكِ النظر في هذه الأمور فقال: أفلا تعقلون؛ لأنَّ ذلك دلالة الزجر والتهديد"(١٠٥).

وبيَّن سبحانه وتعالى أنَّه يُلبس اللَّيل النَّهار بظلامه، ويُلبس النَّهار اللَّيل بضيائه، وجعلها من الآيات التي مَن تفكَّر فيها دلَّت عليه، فقال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا

---

(١٠١) وكذلك آية سورة الجاثية فيها شبه كبير بهذه الآية،﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الجاثية: ٥].

(١٠٢) الحديث أخرجه أبي الشيخ الأصبهاني في أخلاق النبي ﷺ وآدابه (٢٠٠)، وابن حبان في صحيحه -بترتيب ابن بلبان- (٣٨٦/٢) برقم (٦٢٠)، باب: التوبة، وأبي القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب (٣٨٧/١) باب: في الترغيب في التفكر في آلاء الله عز وجل، وخلق السموات والأرض، وذكره السيوطي في الدُّر المنثور (١٨٢/٤).

(١٠٣) القول الوجيز (٢٧٤).

(١٠٤) الفتح السماوي، للمناوي (٢٠٥/١).

(١٠٥) تفسير الرَّازي (٢٨٩/٢٣).

رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الرعد: ٣].

كما أخبر سبحانه بأنَّ نعمة اللَّيل والنَّهار تستوجب الشكر والتذكُّر، فقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[الفرقان: ٦٢].

وجعل الاتِّعاظ بتعاقب اللَّيل والنَّهار من خصال ذوي البصيرة، قال تعالى ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[النور: ٤٤].

والخلاصة: أنَّ القرآن مليء بالآيات التي حثَّت على التفكُّر والتدبُّر في آية اللَّيل والنَّهار، والنظر فيها بعين البصيرة والبصر؛ لتقود المرء إلى تقوية إيمانه بالله تعالى، وشكر نعمته فيهما.

المطلب الثالث: علاقة اللَّيل بالنَّهار

إنَّ علاقة اللَّيل بالنَّهار والنَّهار باللَّيل تدور بين التلازم من ناحية، وبين التَضاد من ناحية أُخرى.

علاقة التلازم:

ومن خلال ما سبق يظهر بأنَّ اللَّيل والنَّهار آيتين متلازمتين يُكمِّل كل منها الآخر، كما أنَّهما لا ينفكَّان عن بعضهما البعض، إذا ذهب هذا جاء الآخر، والعكس كذلك، وهذا ما يُشير إليه لفظ القرآن في قوله تعالى ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾[فاطر: ١٣]، وقوله تعالى ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾[الأعراف: ٥٤]، أي: يُورد اللَّيل على النَّهار فيُلبسه إياه حتى يذهب بنوره، وكل ذلك يكون بسرعة كبيرة(١٠٦).

قال ابن كثير: "كل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، يتعاقبان لا يَفْتران، ولا يفترقان بزمان غيرهما"(١٠٧).

وقال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[النور: ٤٤]،قال ابن جرير: "يُعقب اللهُ بين اللَّيل والنَّهار ويُصرفهما، إذا أذهب هذا جاء هذا، وإذا أذهب هذا جاء هذا،

(١٠٦) تفسير الطبري (١٢/٤٨٣).
(١٠٧) تفسير ابن كثير (٥/٤٨٨).

وفي تقليبه اللَّيل والنَّهار لعبرة لمن اعتبر به، وعِظةً لمن اتَّعظ به، ممن له فهم وعقل"[١٠٨].

وقد سبق التنويه بأنَّ لفظ اللَّيل في غالب القرآن الكريم وأكثره جاء مقرونًا بالنَّهار[١٠٩]، وهو من الدلائل الدالَّة على التلازم، فالتلازم اللفظي بينهما في القرآن يُحرِّك المشاعر والعقول لإيجاد الحكمة من كثرة ذكرهما متعاقبين، ليَصِل إلى حقيقة سبب جعلهما آيتين: وهي العِظة والعبرة والتفكُّر والتأمل في خلقهما، وشكر الباري سبحانه على نعمته فيهما، ومعرفة عظمة الله الخالق جلَّ جلاله، وأنَّه المستحقُّ للعبادة والخضوع والتذلُّل.

ويتبيَّن أثر التلازم بين اللَّيل والنَّهار أيضًا عند الحديث عن النباتات، فليس الإنسان المستفيد من هذا التلازم، بل النباتات والزهور كذلك، "فتتابع اختلاف اللَّيل عن النَّهار بالإضاءة والظُلمة والطُول والقِصر يُؤدي إلى تكوين هرمون الإزهار (Flowering hormone) وهذا الهرمون مهم في إحداث عمليات الإزهار في النباتات الزهرية"[١١٠].

كما أنَّ تتابع اللَّيل والنَّهار مهم لعملية البناء الضوئي وتكوين الثمار، ففي النَّهار تكون محصِّلات الضوء، وفي اللَّيل تكون محصِّلات الظلام، وينتج عنهما تكوين المواد الكربوهيدراتية التي منها ينتج باقي المواد والمركبات النباتية[١١١].

علاقة التضاد:

ومع كون العلاقة بين اللَّيل والنَّهار متلازمة من حيث التتابع والتعاقب؛ إلاَّ أنَّهما متضادَّان يختلف كل منها عن الآخر من ناحيتين:

الأولى: من حيث الوصف بالظُلمة والضياء، فاللَّيل يأتي معه الظلام، والنَّهار يأتي معه الضياء، وشتان بينهما، ولكلٍّ فوائد.

الثانية: أنَّهما لا يجتمعان في وقت واحد[١١٢]، فهو من المحال الكوني وقوعه في سنن الله تعالى، وهذا ما يشهد له الواقع، وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[يس:٤٠].

---

(١٠٨) تفسير الطبري (٢٠٣/١٩).
(١٠٩) انظر ص: (٥).
(١١٠) مقال لـ أ.د نظمي خليل أبو العطا موسى، بعنوان: "يُغشي اللَّيل النَّهار" في موقع الشبكة العنكبوتيَّة: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة.
(١١١) المرجع السابق.
(١١٢) انظر: معجم مقاييس اللغة (٣٦٠/٣) مادة: (ضد)، وتأويلات أهل السُّنَّة (٥٢١/٨).

قال الحسن(رحمه الله ١١٠هـ): "لكل واحدٍ منهما سلطان، للشمس سلطانٌ بالنَّهار، وللقمر سلطانٌ بالليل"(١١٣).

ومن هنا يستشعر المرء عظمة الله جلَّ جلاله وحكمته في تدبير الخَلْق، فمع هذا الاختلاف الواضح بينهما يكونا متلازمين بتلازم حركة الأفلاك الدائرية، وتوالي أحدهما على الآخر، من غير اختلالٍ في النظام الكوني الفسيح، فسبحان الله ربِّ العالمين، وأحكم الحاكمين.

المبحث الثالث: أوصاف اللَّيل

إنَّ الوصف يزيد الموصوف ظهورًا ووضوحًا، ويُبيِّن ماهيته، ويضيف فوائد من جرَّاء ذلك الوصف.

ولقد وصف الله تعالى اللَّيل بأوصافٍ عديدة في القرآن الكريم، بيانها في التقسيم التالي:

الوصف الأول: السُّبَات.

والسُّبَاتُ: هو الراحة والسُّكون؛ ولذلك سُمِّيَ السَّبْتُ سبتًا، لأنَّه يوم راحةٍ ودَعة(١١٤).

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾[الفرقان: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا ﴾[النبأ: ٩].

والملاحظ في الآيتين السابقتين أنَّ السُّبات وصفٌ للنوم لا لليل، وللإجابة عليه يرد احتمالين:

الاحتمال الأول: أنَّه عطف النوم على الليل، والعطف متعلِّق بالجملة الفعليَّة، وهذا الملاحظ من آية الفرقان.

الاحتمال الثاني: الإشارة والتنبيه على أنَّ الراحة والسُّكون والنوم يكون بالليل، وهذا هو الأصل، ولذا كان من رحمة الله وحكمته أن جعل الراحة والنوم باللَّيل، فقد اكتشف العلماء أنَّ في الدِّماغ غُددًا صنوبريَّة تقوم بإفراز مادة هرمونيَّة تُسمى الميلاتونين (Melatonin) التي تؤثِّر وتساعد في عملية النوم، ويزداد إفرازها أكثر في الظلام(١١٥).

---

(١١٣) تفسير ابن أبي حاتم (٣١٩٦/١٠) برقم (١٨٠٧٩).

(١١٤) تفسير الطبري (١٥١/٢٤).

(١١٥) انظر: مقالة لـ د. جابر بن سالم القحطاني في جريدة الرياض، نُشرت في يوم الإثنين ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٨هـ - ١٦أبريل ٢٠٠٧م - العدد ١٤١٧٥.

وقد "أظهرت دراسة حديثة أنَّ استخدام الكومبيوتر أو ألعاب الفيديو ليلاً قد يحرم صاحبه النوم أثناء تلك الليلة، ويعود السبب في ذلك إلى أنَّ الضوء الساطع لشاشة الكومبيوتر يمكن أن يُغيِّر موعد النوم من الناحية البيولوجية ويثبط الإفراز الطبيعي لهرمون الميلاتونين التي يُعتبر مهماً لدورة النوم والاستيقاظ لدى الناس. ويقول الباحثون: إنَّ التعرُّض للضوء يُؤثر على كميَّة الميلاتونين التي يُنتجها الجسم، والذي يُؤدِّي بدوره إلى اضطراب النوم وخاصةً بين كبار السن"(١١٦).

كما أنَّ العلماء اكتشفوا أن النوم بالنهار يُؤثِّر على الجهاز العصبي بعكس اللَّيل؛ كلُّ هذا له حكمة في دورة حياة الإنسان، فسبحان الله أحكم الحاكمين.

وفي آية الفرقان يأتي تساؤل من جرَّاء خلق الليل لباسًا والنوم سباتًا وكلاهما وُجِدَا للراحة والسُّكون، فهل هناك من فائدة زائدة؟!

لا شكَّ في أنَّ اللَّيل والنوم يشتركان في كونهما محطَّةً زمنيَّة لراحة الأبدان والأجساد؛ ولكنَّ النوم يزيد على ما ذُكِر في أنَّه راحة للعقل، إذ إنَّ العقل هو المحرك للبدن، ولا بدَّ له من راحة حتى يستعيد نشاطه، وهذ ما يجعل لذكر النوم بعد الليل فائدة، والله سبحانه أعلم بمراده فيها.

الوصف الثاني: السجو.

السين والجيم والواو أصل يدلُّ على سكون وإطباق، يُقال سجا اللَّيل، إذا ادْلهمَّ وسَكَن(١١٧).

وهذا الوصف ورد مرَّة واحدة في القرآن الكريم، قال تعالى ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[الضحى: ٢].

وجاء في معنى الآية ثلاثة أقوال:

القول الأول: واللَّيل إذا أقبل، وبه قال سعيد ابن جبير(١١٨).

القول الثاني: واللَّيل إذا ذهب، وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما.

القول الثالث: واللَّيل إذا استوى وسكن، وبه قال مجاهد، وقتادة، والضحَّاك، وابن زيد. وهو اختيار الطبري(١١٩)، وابن قتيبة(١٢٠). فيكون المعنى: واللَّيل إذا سكن واستوى بظلامه، أو عبارة عن استكنان المخلوقات فيه.

وقد سبق الحديث عن هذه الآية من منحى آخر في آيات القسم(١٢١).

---

(١١٦) مقالة من موقع د. جمال عبد العظيم على شبكة الإنترنت، نشرت في ٨ ديسمبر ٢٠١٠م.
(١١٧) معجم مقاييس اللغة (١٣٧/٣) مادة: (سجو).
(١١٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٤٤٢/١٠) برقم (١٩٣٧٢).
(١١٩) انظر: تفسير الطبري (٤٨٢/٢٤-٤٨٤).
(١٢٠) انظر: غريب القرآن، لابن قتيبة (٤٥٩).
(١٢١) انظر ص: (١١).

الوصف الثالث: السَّكن.

والسَّكَنُ: هو الراحة والهدوء، خلاف الاضطراب والحركة[١٢٢]. وقد ورد ذِكْرُهُ في القرآن في سبعة مواضع، منها:

١) قال تعالى ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الأنعام: ١٣].

٢) وقال تعالى ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[الأنعام: ٩٦][١٢٣].

وهذه الآيات تدلُّ دلالة واحدة على أنَّ الحكمة من خَلْقِ اللَّيل وإيجاده هو السَّكن والراحة وقطع الأشغال والأعمال - إلاَّ من عبادة وضرورة -، فقد كان النبي صلَّى الله عليه وسلَّم يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها[١٢٤].

وفي الآية الأولى إشارة إلى امتلاكه سبحانه لكلِّ ساكنٍ في اللَّيل والنَّهار، وجعل ذلك تمهيدً لسعة علمه وإحاطته بكل شيء في جيع الأوقات.

وإنَّما خصَّ اللَّيل بالذِكْرِ لأنَّ السَّاكن في ذلك الوقت يزداد خفاءً، وعطف النَّهار عليه لتحقيق تمام الإحاطة والعلم[١٢٥]. **وقيل**: لأنَّه أغلب الحالين على المخلوق من الحيوان والجماد، ولأنَّ كلَّ متحرِّك يَصير إلى السُّكون"[١٢٦].

"وقد جاء قوله: وهو السميع العليم كالنتيجة للمقدمة، لأن المقصود من الإخبار بأن الله يملك الساكنات التمهيد لإثبات عموم علمه، وإلا فإن ملك المتحركات المتصرفات أقوى من ملك الساكنات التي لا تبدي حراكا، فظهر حسن وقع قوله: وهو السميع العليم عقب هذا"[١٢٧].

وفي الآيات أيضًا امتنانٌ من الله تعالى على خلْقِه، بأن جعل اللَّيل رحمة لهم، ونعمة تستوجب الشُّكر؛ ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون.

وبيَّن سبحانه لعباده أنَّ آية اللَّيل هي محض فضلٍ منه تعالى لا عن استحقاق منهم، ولذلك قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[غافر: ٦١].

---

(١٢٢) انظر: معجم مقاييس اللغة (٨٨/٣) مادة: (سكن).
(١٢٣) وبقية المواضع هي: [يونس:٦٧]، و[النمل:٨٦]، و[القصص:٧١،٧٣]، و[غافر:٦١].
(١٢٤) أخرجه البخاري في صحيحه (١١٤/١)، كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت العصر، برقم (٥٤٧) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه.
(١٢٥) انظر: التحرير والتنوير (١٥٥/٧).
(١٢٦) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السُّيوطي (٢٤٢/١).
(١٢٧) المرجع السابق (١٥٥/٧، ١٥٦).

كما أن الآيات الكريمة كانت في سُورٍ مكيَّة لتدلَّنا على حقيقة تلك التعبيرات القرآنيَّة المليئة بالقوَّة والجزالة، والمحاجَّة بالبراهين الكونيَّة والعقليَّة التي توصل إلى نتيجة واحدة وهي أنَّ لهذا الكون إلاهًا ومدبِّرًا واحدًا يستحقُّ العبادة والتوحيد.

الوصف الرابع: الغشي.

الغين والشين والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تغطية شيء بشيء(١٢٨)، وهذا المعنى هو المقصود من قوله ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾[الليل:١] (١٢٩)، **وقيل:** إذا غشي الخَليقة بظلامه(١٣٠).

وعلى أيِّ تفسير كان عليه هذا اللفظ، فإنَّ المقصود منه الوصف الحاصل كل يوم بغشيان ظلام اللَّيل وتغطيته لضوء النَّهار(١٣١).

ومن ذلك أيضًا: قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله عزَّ وجلَّ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الرعد: ٣].

قال السمرقندي: "يعني: أنَّ اللَّيل يأتي على النَّهار فيُغطيه، ولم يقل يغشي النَّهار اللَّيل لأنَّ في الكلام دليلاً عليه. وقد بيّن في آية أخرى ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥] فكذلك هاهنا معناه يغشي النَّهار اللَّيل ويغشي اللَّيل النَّهار؛ يعني: إذا جاء النَّهار يذهب بظلمة اللَّيل وإذا جاء اللَّيل يذهب بنور النَّهار"(١٣٢).

وجاء في قراءة عَاصِم من رِواية أَبى بكر، وقراءة حَمْزَة، والكسائي(١٣٣): (يغشّي) بالتشديد احتجاجًا بقوله تعالى ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾[النجم: ٥٤]، فالتشديد يُوجب التكرير، وكذلك هو فِعْلٌ يتكرَّر ويتردَّد؛ وذلك أنَّ كل ليلة غير ليلِ اليوم الآخر، فالتغشية مكرَّرة لمجيئها

(١٢٨) معجم مقاييس اللغة (٤/٤٢٥).
(١٢٩) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/٨٠).
(١٣٠) تفسير ابن كثير (٨/٤١٧).
(١٣١) انظر: النُّكت والعيون (٢/٢٣٠).
(١٣٢) بحر العلوم (١/٥٢١).
(١٣٣) السَّبعة في القراءات، لابن مجاهد (٢٨٢).

يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة[١٣٤]؛ ولذلك كانت أبلغ من قراءة التخفيف مع أنَّ معناهما واحد[١٣٥].

وفي آية الأعراف، عقَّب ذكر غشيان اللَّيل النَّهار بالطلب الحثيث، وهو السريع، "لأنَّ سرعة تعاقب اللَّيل والنَّهار تجعل كل واحد منهما كالطالب لصاحبه"[١٣٦].

وفي آية الرعد، عقَّب ذكر غشيان اللَّيل النَّهار بالتدبُّر والتفكُّر في آية الله فيهما، وقد ضُمِّن ذلك المدح للمتفكِّرين عن غيرهم ممن عطَّل هذه العبادة القلبيَّة العظيمة.

الوصف الخامس: اللِّباس.

إنَّ اللِّباس في الأصل جعله الله تعالى صفة لبني آدم، قال تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾[الأعراف: ٢٦].

ولكنَّ اللِّباس استعير لوصف اللَّيل بجامع السَّتر والتغطية، فكما أنَّ اللِّباس يستر عورة بني آدم، فكذلك اللَّيل يستر الخلائق بظلامه؛ لكي يرتاح من المشقَّة التي كانت في نهاره، "ولما في هذا السّتر من فوائد كثيرة لقضاء الحوائج التي يجب إخفاءها"[١٣٧]؛ ولذلك قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴾[الفرقان: ٤٧]، وقال عزَّ وجل ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾[النبأ: ١٠].

وقد ذكر الرَّازي(رحمه الله ٦٠٦ه) بعض وجوه النعم من كون اللَّيل ساترًا ولباسًا، فقال: "وأما وجه النعمة في ذلك، فهو أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هربا من عدو، أو بياتًا له، أو إخفاء ما لا يحب الإنسان إطلاع غيره عليه، قال المتنبي:

وكَمْ لِظَلامِ اللَّيْلِ عِنْدِي مِنْ يَدٍ ... تُخَبِّرُ أنَّ المانَويَة تَكْذِبُ

وأيضا فكما أنَّ الإنسان بسبب اللِّباس يزداد جماله وتتكامل قوَّته ويندفع عنه أذى الحرّ والبرد، فكذا لباس اللَّيل بسبب ما يحصل فيه من النوم يزيد في جمال الإنسان، وفي طراوة أعضائه وفي تكامل قواه الحسيَّة والحركيَّة، ويندفع عنه أذى التعب الجسماني، وأذى الأفكار الموحشة النفسانيَّة، فإنَّ المريض إذا نام باللَّيل وَجَدَ الخفَّة العظيمة"[١٣٨].

---

(١٣٤) الهداية إلى بلوغ النِّهاية (٢٣٩٧/٤).
(١٣٥) الحجَّة في القراءات السَّبع، لابن خالويه (١٥٦).
(١٣٦) النُّكت والعيون (٢٣٠/٢).
(١٣٧) التحرير والتنوير (٤٥/١٩).
(١٣٨) تفسير الرَّازي (١٠/٣١).

الوصف السادس: النشوء.

النون والشين والهمزة أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ارتفاع في شيء، وأنشأه الله: رفعه. ومنه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[المزمل: ٦]، يُراد بها والله أعلم القيام والانتصاب للصلاة(١٣٩).

جاء عن ابن أبي مليكة قال: سألت ابن عباس وابن الزبير عن ناشئة اللَّيل قالا: قيام اللَّيل. وعن ابن مسعود في قوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال: هي بالحبشيَّة قيام الليل(١٤٠).

وقيل: إنَّ الناشئة ما بين المغرب والعشاء، قاله أنس بن مالك. **وقيل**: ما بعد العشاء الآخرة، قاله الحسن ومجاهد. **وقيل**: إنَّها ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة، قاله ابن قتيبة. **وقيل**: أنه بدء الليل، قاله عطاء وعكرمة. **وقيل**: أن الليل كلَّه ناشئة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما(١٤١).

ولا تعارض يظهر - والله أعلم –بين هذه الأقوال؛ لأنَّها من باب اختلاف التنوُّع لا التضاد، فسواءٌ أكان اللَّيل كلَّه، أو ساعة منه، أو بدايته، أو بعد العشاء؛ كلُّ ذلك يشمله قيام اللَّيل.

ومن هنا تأتي الحكمة في سرِّ اختيار الله تعالى اللَّيل على النَّهار في القيام بالعبادة، فالقلب يكون فيه أكثر خشوعًا، والبالُ والبدن أكثر هدوءً، ولا يُمكن حدوث ذلك مع النَّهار الذي يصحبه الصخب والتعب؛ ولذلك قال الله تعالى﴿أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[المزمل: ٦]، وقال تعالى لنبيِّهِ في آيةٍ أُخرى﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾[الشرح: ٧ - ٨].

قال ابن جرير الطبري: "ناشئة اللَّيل أَشدُّ ثباتًا من النَّهار وأَثْبَتُ في القلب، وذلك أنَّ العمل باللَّيل أَثْبَت منه بالنَّهار"(١٤٢). وقد ورد في قوله تعالى ﴿أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾ قراءتان:

الأولى: (وَطْئًا) مقصورة، وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي.

الثانية: (وِطَاء) ممدودة، وهي قراءة أبي عمرو وابن عامر(١٤٣).

(١٣٩) معجم مقايس اللغة (٤٢٨/٥، ٤٢٩)، مادة: (نشأ).
(١٤٠) تفسير ابن أبي حاتم (٣٣٨٠/١٠).
(١٤١) المرجع السابق.
(١٤٢) تفسير الطبري (٦٨٤/٢٣).
(١٤٣) السَّبعة في القراءات (٦٥٨).

قال الماتريدي: "فمن قرأ: (وطاء) بالمدِّ، فتأويله من المواطأة، وهي الموافقة، أي: موافق للسمع، والبصر، والفؤاد؛ لأنَّ القلب يكون أفرغ بالليالي عن الأشغال التي تَحُوْل المرء عن الوصول إلى حقيقة دَرْكِ معاني الأشياء، وكذلك السمع والبصر يكون أحفظ للقرآن، وأشدّ استدراكًا لمعانيه.

ومن قرأه: (وَطْئًا)، فهو من الوطء بالأقدام؛ فتأويله: أنَّه أشدّ على البدن وأصعب؛ لأنَّ المرء قد اعتاد التقلُّب والانتشار في الأرض بالنَّهار، ولم يَعْتَد ذلك باللَّيل، بل اعتاد الراحة فيه، فإذا كُلِّف القيام والانتصاب برجليه في الوقت الذي لم يعتد فيه القيام، كان ذلك أشدّ عليه وأصعب على بدنه"(١٤٤).

والخلاصة في أوصاف اللَّيل المذكورة في القرآن: أنَّها صرَّحت وألمحت بأهمية اللَّيل في استمرارية الحياة، وذكرت فوائده على الخلق والإنسان، وحثَّت على حُسن استغلاله.

المبحث الرابع: أجزاء اللَّيل.

إنَّ اللَّيل كغيره من المخلوقات التي خلقها الله جلَّ جلاله من حيث أنَّ له زمن ابتداء وانتهاء، وقد سبق الكلام عن ذلك في حدِّ اللِّيل.

وقد ورد في القرآن الكريم ألفاظ تدلُّ على أجزاء من اللَّيل، ولكنها ترجع إلى ثلاثة أجزاء موزعة بين أوله وأوسطه وآخره، سأذكرها في المطالب الآتية:

المطلب الأول: أول اللَّيل (الغروب)

الغروب هو الغياب،ولذلك يُقال: غربت الشمس، أي: غابت في الغرب(١٤٥).

وقد ورد ذكر الغروب في القرآن في قوله تعالى﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾[طه: ١٣٠]، وقوله عزَّ وجل ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾[ق: ٣٩].

والتسبيح هنا المقصود به الصلاة عند الجمهور(١٤٦)، والصلاة التي قبل الغروب اختلف في تحديدها على قولين:

القول الأول: أنَّها صلاة الظهر والعصر، قاله ابن عباس رضي الله عنها.

---

(١٤٤) تأويلات أهل السُّنَّة (٢٧٣/١٠).

(١٤٥) لسان العرب (٦٣٨/١)، مادة: (غرب).

(١٤٦) انظر: تفسير الطبري (٣٧٦/٢٢)، .

ISSN:2617-3158

القول الثاني: أنها صلاة العصر، قاله قتادة(١٤٧).

وعلى كلّ؛ فإنَّ في الآية لفت الانتباه إلى فضيلة هذين الوقتين المذكورين، والتقويِّ بالصلاة والذكر فيهما على مواجهة أمور الدنيا نهارًا، وشكر نعمة الله ليلاً.

وأول أجزاء اللَّيل يشمل الشَّفَق، والزُّلْفَة، وكلاهما ذُكرا في القرآن الكريم، قال الله تعالى ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾[هود: ١١٤]، وقال الله عزَّ وجل ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾[الانشقاق: ١٦].

والشَّفَقُ: هو الحُمْرَة في الأُفق من ناحية الغرب وهي ضياءٌ من شعاع الشمس، وتكون من بعد غروب الشمس إلى صلاة العَتْمة (العشاء)(١٤٨)، هذا على أرجح الأقوال(١٤٩). وهو إيذانٌ بدخول اللَّيل؛ ولهذا جاء اللَّيل معطوفًا على الشَّفَق ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾[الانشقاق: ١٦ – ١٧](١٥٠).

والقسم بالشَّفق يدلُّ على أهميَّة هذا الوقت، وأنَّ له منزلة في اليوم والليلة؛ لكي يُؤدي المسلم فيه صلاته، ويلتفت إلى ذكر الله بقلبه ولسانه، فيكون دائم الصِّلة به جلَّ جلاله.

والشَّفقُ هو الوقت الخاشع - الساكن – المرهوب بعد الغروب، يحسُّ القلب بمعنى الوداع وما فيه من أسى صامت وشجى عميق، كما يحسُّ برهبة اللَّيل القادم، ووحشة الظلام الزاحف. ويلفُّه في النهاية خشوعٌ وخوفٌ خفي وسكون!(١٥١)

والزُلْفة: هي بضع ساعاتٍ من اللَّيل، **وقيل**: المنزلة، ومنه سميت مزدلفة؛ لأنَّها منزلة بعد عرفة، **وقيل**: القُرْبة(١٥٢).

وقد أمر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم –والخطاب يتناول أُمَّتَه؛ لأنَّ المأمور به من الواجبات- في هذه الآية بإقامة الصلاة في طرفي النَّهار وطائفة من اللَّيل، والأمر يقتضي الوجوب ولا يكون ذلك إلاَّ للصلوات المفروضة(١٥٣).

---

(١٤٧) زاد المسير (١٦٥/٤).
(١٤٨) التفسير القرآني للقرآن (١٥٠٧/١٦).
(١٤٩) وممن رجَّح ذلك الطبري في تفسيره (٣١٨/٢٤)، والبغوي في تفسيره (٣٧٥/٨) ونسبه إلى ابن عباس وأكثر المفسّرين.
(١٥٠) انظر: التحرير والتنوير (١٧٧/١٢- ١٧٩).
(١٥١) في ظلال القرآن (٣٨٦٨/٦).
(١٥٢) انظر: تفسير الطبري (٥٠٥/١٥)، ومعجم مقاييس اللغة (٢١/٣) مادة: (زلف).
(١٥٣) انظر: التحرير والتنوير (١٧٧/١٢- ١٧٩).

والمقصود بها في الآية الكريمة: صلاة العتمة (العشاء)(١٥٤)؛ لأنَّها تُصلَّى بعد مُضيّ زُلَفٍ من اللَّيل(١٥٥).

وعلى أيِّ تفسيرٍ فُسِّرتْ به الآية الكريمة، فإنَّ المعنى المستفاد منها: أنَّ أداء الصلاة المفروضة وإقامتها على الوجه الأكمل سببٌ في تحصيل الحسنات وتكفير السَّيئات؛ سواءٌ أكان المقصود منها الصلوات الخمس أم بعضها.

ويظهر ذلك من خلال التعبير عن الصلاة بالحسنات – على وجه الخصوص لا العموم-.

المطلب الثاني: وسط اللَّيل (الغَسَق)

جاء في معنى الغسق أنَّه أوّل ظلمة اللَّيل، وقد غسَق الليل يَغْسِقُ، أي أظلم. والمقصود بالظلمة هنا اشتدادها؛ ولذلك عُرِّف الغاسقُ بأنَّه: اللَّيل المظلِم إذا غاب الشَّفق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾[الفلق: ٣](١٥٦)،أي: من شرِّ ظلام اللَّيل إذا دخل وهجم على الخليقة(١٥٧).

واشتملت سورة الفلق على ثلاثة أصول: الاستعاذة، والمستعاذ به، والمستعاذ منه.

فالاستعاذة تدلُّ على التحرُّز والتحصُّن، وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه.

والمستعاذ به وهو الله وحده ربُّ الفلق الذي لا ينبغي الاستعاذة إلاَّ به، ولا يُستعاذ بأحدٍ من خَلْقِه، بل هو الذي يُعيذ المستعيذين ويعصمهم ويمنعهم من شرِّ ما استعاذوا من شره(١٥٨).

والمستعاذ منه الظلام أو اللَّيل إذا دخل. والظُّلمة ليست شرًّا ليُستعاذ منها - وكذلك اللَّيل -؛ وإنَّما للشّرور والأضرار المتوقَّع حصولها فيها، "فأُمر بالتعوُّذ ممَّا يكون فيها، لا أن يكون منها"(١٥٩).

---

(١٥٤) هذا على القول الراجح، وهو قول ابن عباس ومجاهد، أمَّا القول الآخر: فهو أنَّ المقصود بها صلاة المغرب والعشاء. للاستزادة انظر: تفسير الطبري (٥٠٦/١٥، ٥٠٧).

(١٥٥) تفسير الطبري (٥٠٦/١٥) ورجَّح أنها صلاة العتمة للعلَّة المذكورة.

(١٥٦) انظر: تأويلات أهل السُّنَّة (٦٥٦/١٠)، والصحاح (١٥٣٧/٤) مادة: (غسق).

(١٥٧) تفسير الطبري (٧٠٢/٢٤) ورجَّح أنَّ المقصود بدخول المظلِم: اللَّيل؛ لا أنَّه كوكب الثريا، أو القمر.

(١٥٨) بدائع الفوائد، لابن القيِّم (٢٠٠/٢- ٢٠٣) مختصرًا.

(١٥٩) تأويلات أهل السُّنَّة (٦٥٦/١٠).

وذكرُ التعوُّذ من الغاسق بعد الاستعاذة من شرِّ المخلوقات: هو من ذِكْرِ الخاصِّ بعد العام.

ومن آيات الغسق في القرآن، قوله تعالى ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾[الإسراء: ٧٨].

المطلب الثالث: آخر اللَّيل (السَّحَر)

السَّحَرُ: هو الوقت الذي قبل طلوع الفجر، وهو ثلث اللَّيل الآخر، ومنه السَّحور، وهو الطعام المأكول في وقت السحر(١٦٠).

وقال الزَّجَّاج(رحمه الله ٣١١هـ): "السَّحَرُ أول إدبار اللَّيل إلى أن يَطلع الفجر الظاهر البيِّن"(١٦١).

وقد وردت أقوال كثيرة في تقسيم وقت اللَّيل، وأظهرها ما جاء في السُّنَّة المطهَّرة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ"(١٦٢). فدلَّ على أنَّ اللَّيل ثلاثة أقسام من حيث المدَّة الزمنيَّة.

وهذا الوقت من الأوقات الفاضلة التي خصَّها الله بالصلاة والذِكْرِ والدعاء، لبيان فضل العبادة فيها، قال تعالى ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾[آل عمران: ١٧]، وقال عزَّ وجل ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[الذاريات: ١٨].

والمقصود من هاتين الآيتين مدح المتعبِّدين باللَّيل، والحثُّ على قضاء اللَّيل بالعبادة سواءٌ أكانت ذِكْرًا واستغفارًا، أم صلاةً، وقراءة للقرآن، وتفكُّر وتدبُّر، والأفضل: الجمع بين العبادات قدر المستطاع، فصلاة اللَّيل فيها قراءةٌ للقرآن ودعاء، ومن ثمَّ تفكُّرٌ واستغفار ومناجاة.

فينبغي للمؤمن الكيِّس أن يجعل لنفسه وقتًا في اليوم والليلة لكي يراجع نفسه، وأن يُخصِّص ليله ببعض العبادات القلبيَّة والعمليَّة؛ لكي يزداد قلبه إيمانًا ويقينًا، وجسده قوة واستعدادًا لمواجهة الأشغال صباحًا.

---

(١٦٠) انظر: تفسير الرَّازي (١٦٧/٧).
(١٦١) معاني القرآن، للزَّجَّاج (٣٨٥/١).
(١٦٢) صحيح البخاري (٥٣/٢) كتاب التهجُّد، باب الدعاء في الصلاة من آخر اللَّيل، برقم (١١٤٥).

المبحث الخامس: اللَّيل والعبادة[١٦٣]

إنَّ الله تعالى هو الأعلم بما يُصلحُ عباده ويَصلح لهم، فهو الحكيم في أمره ونهيه؛ ولذلك فرض عليهم أمورًا، وخصَّص أوقاتًا لها لحصول المنفعة لهم، وكان من ذلك: جعله سبحانه اللَّيل ظرفًا زمنيًا أوفر حظًا من النَّهار في فعل العبادة بجميع أنواعها، وبيَّن فضل ذلك وحثَّ المؤمنين عليه.

ولهذا كان شِعَار النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم حين قالت له عائشة رضي الله عنها – وقد كان يقوم من اللَّيل حتى تتفطَّر قدماه – لم تَصْنَع هذا وقد غَفِرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ ومَا تَأَخَّر، قال: "أَفَلا أَكُوْنُ عَبْدًا شَكُوْرًا"[١٦٤].

وعلى طريق القدوة مشى الصحابة والتابعون ومن تبعهم من الصالحين، فعرفوا فضل هذه المدَّة الزمنيَّة من بين ساعات اليوم، فشمَّروا عن ساعد الجدِّ، وأخذوا يهتبلون الفرصة فيه بفعل الطاعات والأُنس بالله جلَّ جلاله.

ولقد تحدَّث القرآن الكريم عن عباداتٍ كثيرة تُفعل باللَّيل، ومن ذلك: القيام، والتهجُّد، والذكر، والتفكُّر، وقراءة القرآن.

المطلب الأول: قيام اللَّيل.

إنَّ المتتبِّع لآيات القرآن الكريم يجدها تأمر بقيام اللَّيل وتحثُّ عليه، وقد "كان قيام اللَّيل واجبًا على النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وعلى أُمَّتِه حولاً، ثم نُسِخَ في حَقِّ الأُمَّةِ وجُوبه،ثم بعد ذلك نَسَخَ اللهُ تعالى ذلك كلِّه ليلة الإسراء بخمس صلوات"[١٦٥].

قال تعالى ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[المزمل: ٢ – ٦].

والناشئة هي القيام، وسبق شرح هذه الآية في معنى النشوء[١٦٦]،ويُفاد من قوله تعالى في ختام الآية السابقة ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾: التحريض على قيام اللَّيل لكثرة الأجر فيه[١٦٧].

---

(١٦٣) العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وعلى هذا: تدخل عبادات كثيرة تحت هذا المعنى؛ ولكني سأكتفي بعرض بعضها هنا لضيق المقام.

(١٦٤) صحيح البخاري (١٣٥/٦) كتاب تفسير القرآن، باب{ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر}، برقم (٤٨٣٧).

(١٦٥) تفسير ابن كثير (٤٠٩/٧).

(١٦٦) انظر ص: (٣٠).

(١٦٧) معترك الأقران (٤٢/٢).

وقال سبحانه ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾[الإسراء: ٧٩].

ففي هذه الآية أمرٌ خاصٌّ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يتهجَّد بقراءة القرآن في صلاة اللَّيل من باب الزيادة على المفروضات التي فرضها الله عليه، وهو لأُمَّته ندبًا. والتهجُّد: التيقُّظ والسَّهر بعد نومةٍ من اللَّيل[١٦٨].

والضمير في «بِهِ» عائدٌ على القرآن، لأنَّهُ رُوْح الصَّلاة وقوامها[١٦٩].

فـ"قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها والاتصال بالله، وتلقي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن؛ هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل! ويُنير القلب في الطريق الشاقِّ الطويل"[١٧٠].

ولذلك عرف السَّلفرحمهم الله ما لصلاة اللَّيل والمصلِّين من فضْلٍ فتجِد جنوبهم مرتفعة بعيدة عن مواضع الاضطجاع كما قال تعالى ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾[السجدة: ١٦]. وقال تعالى ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾[الذاريات: ١٧]، فنومهم باللَّيل قليل بسبب مكابدتهم للقيام وتلاوة القرآن والذِكْر خوفًا منه سبحانه ومحبة وأُنْسًا؛ فهم يستحقُّون نعت المحسنين.

ووصفهم الله وصف تشريفٍ بأنَّهم عباد الرحمن (أي: الصفوة من عباده) بسبب عِدَّة صفات اتَّصفوا بها، ومنها: أنَّهم يقضون ليلهم قائمين ساجدين وخائفين، قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾[الفرقان: ٦٤].

وبيَّن سبحانه وتعالى أنَّ غاية كمال المرء تكون بالعلم والعمل، فقال: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[الزمر:٩]، وبدأ بالعمل لأنَّه الأهم، مع كون العمل لا يصدر إلا عن علم صحيح وَقَرَ قَلْبَ صاحبه.

---

(١٦٨) انظر: تفسير الطبري (٥٢٣/١٧).
(١٦٩) في ظلال القرآن (٢٢٤٧/٤).
(١٧٠) المرجع السابق (٣٧٤٥/٦).

وفي هذه الآية ربط عجيبٌ بين القنوت في اللَّيل والعلم، فالعلم الصحيح لابُدَّ وأن يدلَّ صاحبه على العمل والخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨]، كما أنَّ المرء مهما امتلئ قلبه من العلم فإنَّه يحتاج إلى ساعاتٍ من القيام والمناجاة والتذلُّل بين يدي الله تعالى؛ شكرانًا لنعمه العظيمة، وتلذُّذًا بالعبوديَّة له سبحانه.

والقرآن الكريم لم ينزل إلاَّ للعمل به، وقيام اللَّيل من العمل بالقرآن، فهو أشدُّ وطئًا للقلب وأقوم قيلاً، وأنفعُ لحال المرء مع ربِّه خاصَّة مع سكون اللَّيل بظلامه وخلود الخلق إلى النوم، فلا عينَ تُلاحظ، ولا أُذُن تسمع، ولا شيء هناك إلاَّ مناجاة العظيم والإخلاص له.

وأشارت الآية السابقة إلى أنَّ "الانتفاع بالعمل إنَّما يحصل إذا كان الإنسان مُواظبًا عليه"(١٧١).

المطلب الثاني: قضاء اللَّيل في ذكر الله.

وجاء في آيات الذِكر الحكيم مدح المؤمنين الذين يشغلون ليلهم بذكر الله سبحانه وتعالى من تسبيح واستغفار، قال عزَّ وجل: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات: ١٨].

وأمر الله نبيَّه بالتسبيح في أيِّ وقتٍ من اللَّيل - على قول بعض المفسِّرين أنَّ الأمر للتسبيح(١٧٢) - ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾[ق: ٤٠]، وقوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾[الطور: ٤٩].

وجمع الله عزَّ وجل بين الأمر بالصلاة والتسبيح ليلاً في قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[الإنسان: ٢٦]، طويلاً: أي في أكثر اللَّيل(١٧٣).

إنَّ توجيه القرآن الحكيم لاستغلال اللَّيل بذِكْر الله تعالى جاء لكي يُحقِّق للقلب راحته وطمأنينته التي لا تكون باللَّيل، فمن المعلوم أنَّ بذِكر الله تطمئن القلوب، ولكن ثمةَ استعدادٌ للقلب والبدن لا يكون في أعلى درجاته من الخشوع والتدبُّر وصفاء الذهن وإخلاص العبادة لله فيها؛ إلاَّ باللَّيل.

---

(١٧١) تفسير الرَّازي (٤٢٨/٢٦).
(١٧٢) نُسِب القول بأن الأمر للتسبيح على حقيقته إلى أبي الأحوص، انظر: النكت والعيون (٣٥٧/٥)، و(٣٨٧/٥).
(١٧٣) تفسير الطبري (١١٦/٢٤).

فحريٌّ بنا – نحن المسلمين – أن نلتزم منهج السَّلف الصالح في قضاء اللَّيل بالمحبَّب من العبادات؛ لأنَّها زاد المؤمن الحقيقي لمواجهة الحياة بمغرياتها وفتنها، واستعدادًا لعمل الصالحات فيها.

المطلب الثالث: التدبُّر والتفكُّر

التدبُّر والتفكُّر في ملكوت الله تعالى من أعظم العبادات القلبيَّة، وبما أنَّ اللَّيل والنَّهار من آيات الله تعالى، فالتفكُّر فيهما من المهمَّات؛ ولذلك حثَّ الله الخَلْقَ على التفكُّر في خَلْقِ اللَّيل والنَّهار وتعاقبهما، وجعل فيهما عظةً للمتَّعظين، وحمدًا للشاكرين ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[الفرقان: ٦٢].

كما أنَّ القرآن الكريم امتدح المتفكِّرين والمتدبِّرين في خلق السماوات والأرض، وتعاقب اللَّيل والنَّهار بأنَّهم أصحاب العقول السليمة﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[آل عمران: ١٩٠].

وجعل من أسباب تحصيل التقوى: التفكُّر في خَلْقِ اللَّيل والنَّهار، قال تعالى ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[يونس: ٦].

إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو صراحة إلى التفكُّر في خلقهما، واستغلال العمر في تدبُّر آيات الله تعالى الكونيَّة؛ لتقود المرء إلى توحيد الله، وتقوية الإيمان به، والخشية منه، وتحقيق تقواه.

وقد عرف السَّلف فضل التفكُّر فقال بعضهم: "الفِكرة تُذْهِبُ الغَفْلَة، وتُحْدِثُ للقلبِ الخَشْيَة، كما يُحدِثُ الماء للزرعِ النبات، وما خَلَتِ القُلوب بمثل الأحْزَانِ، وما اسْتَنَارَتْ بمثل الفِكْرَة"(١٧٤).

(١٧٤) هذا الكلام منسوبٌ لابن عَوْنٍ، وهو في: الكشف والبيان (٣/٢٣١)، ومعالم التنزيل (٢/١٥٢)، والكشَّاف (١/٤٥٤)، وتفسير الرَّازي (٩/٤٦١)، والقول الوجيز، للسَّمين الحلبي، سورة آل عمران (٣٨٨) واللفظ منه.

المطلب الرابع: تلاوة آيات القرآن الكريم.

سبق الحديث عن التفكُّر في آية اللَّيل والنَّهار الكونيَّة، وهنا الحديث يختصُّ بالآيات المقروءة المتلوة من كتاب الله تعالى.

حيث جاء القرآن الكريم ممتدحًا من الناس مَن صفتهمأنَّهم قائمون باللَّيل يتلون آيات القرآن في صلواتهم، ويكثرون التهجُّد(١٧٥)، قال تعالى﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾[آل عمران: ١١٣].

وأصل نزول الآية كان لعمل مقارنةٍ بين مَن أسلم من أهل الكتاب ومن لم يُسْلِم(١٧٦)، وجعل من الموازين التي تقتضي المفاضلة تلاوة القرآن في اللَّيل، سواءٌ أكانت في صلاة أم بدونها.

وآناء اللَّيل: يعني ساعاته(١٧٧)، وعبَّر عن بالسجود بدلاً من التهجُّد والقيام؛ لأنَّه يدلُّ على صورة فعلهم، فهو أبلغ وأبْيَن(١٧٨).

كما جاء في آيةٍ أخرى مَدْحُ الذين يقرؤون كتاب الله تعالى، ووعَدهم الله على ذلك:توفية الأُجور، والزيادة من فضله، فقال عزَّ من قائلٍ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[فاطر: ٢٩– ٣٠].

ورد في معنى التلاوة قولان(١٧٩):

القول الأول: أنَّها القراءة.

القول الثاني: أنَّ المقصود منها الاتِّباع؛ أي أنَّهم مُتَّبعون لآيات القرآن علمًا وعملاً.

وفي هذه الآية مَلمحٌ يختصُّ بأهل القرآن وحفظته والمهتمِّين به، بأنَّهم يداومون على قراءة القرآن، فالفعل المضارع يدلُّ على الاستمرار؛ أي أنَّهم تلو ويتلون، فهم دائمي التلاوة.

---

(١٧٥) تفسير ابن كثير (١٠٥/٢).
(١٧٦) انظر: تفسير الطبري (١١٨/٧).
(١٧٧) التصاريف، ليحيى بن سلام (١٩٩).
(١٧٨) التحرير والتنوير (٥٨/٤).
(١٧٩) انظر: زاد المسير (٥١٠/٣).

وهذا ما ينبغي أن يكون ديدنًا لمن أكرمه الله تعالى بحفظ القرآن الكريم، أو التعلُّق بحُبِّ تلاوته آناء اللَّيل وأطراف النَّهار؛ أداء لتزكيته، وعملا بما فيه، نسأل الله من فضله العظيم.

المبحث السادس: اللَّيل والعذاب

لقد ارتبط اللَّيل - فيما سبق - بأصنافٍ من العبادة كالقيام والذِكر والتدبُر وتلاوة القرآن، وفي هذا المبحث سيتم الحديث عن كون اللَّيل آية وجُنْد من جُنود الله سبحانه وتعالى في هذا الكون؛ شأنه شأن جميع المخلوقات من حيث الانقياد لأوامر خالقها سبحانه وتعالى.

حديث القرآن الكريم عن اللَّيل ارتبط بتنزيل العذاب على الأمم السابقة، كقوم عاد، وقوم لوط، وقوم فرعون.

لذا كان الأمر لأنبيائهم بالخروج مع من آمن من قومهم ليلاً؛ لكيلا يُدركوا، وما ذاك إلاَّ لحِكَمٍ عظيمة، منها ما هو مخفيٌّ، ومنها ما هو ظاهرٌ للخَلْقِ.

ولاشكَّ أنَّ للَّيل خاصيَّة على النَّهار في الأمور الحربيَّة التي فيها فرٌّ وكرٌّ، تظهر في كون اللَّيل لباسًا، أي: ساترًا عن الأعين عمومًا والملاحقة المتربصة خصوصًا، ومن هنا أُمر موسى عليه السلام بأن يسري بأهله وقومه ليلاً لكيلا يُدركوا، قال سبحانه: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾[الدخان: ٢٣].

فالسُّرى: هو السّير باللَّيل[١٨٠]، أمرهم الله به وأكَّده بقوله ليلاً زيادة للبيان، "وأن يكون له من سعة الوقت ما يبلغون به إلى شاطئ البحر الأحمر قبل أن يُدركهم فرعون بجنوده"[١٨١].

وكان خروج موسى عليه السَّلام مع أتباعه مِن بين أَظهر أعدائهم ليلاً آية من آيات الله تدلُّ على قدرته سبحانه في تدبير الأمور، ومع ذلك أمر بالخروج والسَّير ليلاً من باب أَخْذ الحِيْطة والحذر، والتخفِّي عن أعين العدوِّ الأكثر عدَّة وعتادًا.

وتكرَّر الأمر مع نبيِّ الله لوط عليه السَّلام حينما أمرته الملائكة أن يَسري بأهله في بقيَّةٍ من اللَّيل قبل طلوع الصبح - وهو وقت السَّحر -، وأخبروه أنَّ موعد نزول العذاب عليهم صباحًا، قال تعالى ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ

(١٨٠) معجم مقاييس اللغة (١٥٤/٣) مادة: (سرو).
(١٨١) التحرير والتنوير (٢٩٩/٢٥).

مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[هود: ٨١]. وقال سبحانه ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾[الحجر: ٦٥].

والعلَّة في المشي ليلاً هنا من أجل عدم حصول الممانعة والرفض من قومه وزوجته فيَشُقَّ عليه دفاعهم، بدليل إخبار الملائكة له بأنَّهم لن يصلوا إليه ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾، فكانت الجملة مطمئنة لنبيِّ الله لوط عليه السَّلامبأنَّهم لن يُدركوا(١٨٢).

ومن الآيات التي اجتمع فيهااللَّيل والعذاب قوله تعالى ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[الحاقة: ٦ – ٧].

حيث بيَّن سبحانه وقوع العذاب في اللَّيل واليوم على قوم عاد الظالمين المكذبين لنبيِّهم هود عليه السَّلام، فكان معنى اليوم بمعنى النَّهار المقابل للَّيل.

وعليه: فقد اختار بعض العلماء أنَّ النَّهار يسبق اللَّيل من خلال هذه الآية، فقد كان النَّهار أكثر من اللَّيل في العدد.

والملاحظ من خلال الآيات السابقة: أنَّ اللَّيل جُعل سببًا ووسيلةً لنجاة المؤمنين من الطُغاة الكافرين، كما أنَّه جُعل ظرفًا زمنيًا لنزول العذاب، بحكم أنَّ اليوم متكونٌ منه ومن النَّهار.

المبحث السابع: ليالٍ فاضلة ذُكِرتْ في القرآن

تحدَّث القرآن الكريم عن ليالٍ مخصوصةٍ، وبيَّن فضلها والأحداث التي حصلت فيها؛ ليدلَّ على أهميتها وشرفها عن غيرها.

وسوف يتم الحديث عن هذه الليالي من خلال أربعة مطالب:

المطلب الأول: (ليلة القَدْر)

ليلة القَدْر هي الليلة الشريفة التي أُمِرنا بِتَحرّيها في ليالي شهر رمضان المبارك، وبالأخص في العَشْرِ الأواخر منه، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رجالا من أصحاب النَّبيِّصلَّى الله عليه وسلَّم، أُرُوا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله صلَّى الله

(١٨٢) التحرير والتنوير (١٣٢/١٢).

عليه وسلَّم: «أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ»[١٨٣].

كما أنَّ الله تعالى زاد من تشريف هذه اللَّيلة بإنْزَال كلامه فيها، قال تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[الدخان: ٣][١٨٤]،وقال تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[القدر: ١].

ويزيد القرآن الكريم الوضوح حول هذه اللَّيلة عندما أخبر أنَّها في شهر رمضان، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[البقرة: ١٨٥].

كلّ هذه الآيات مع الأحاديث الشريفة مجتمعة تدلُّ على أنَّ ليلة القدْر ليلةٌ شريفةٌ؛ فيها نزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزَّة في السماء الدنيا جملةً واحدة، أخرج ابن أبي شيبة(رحمه الله ٢٣٥هـ)[١٨٥]، والنسائي(رحمه الله ٣٠٣هـ)[١٨٦]، والطبراني(رحمه الله ٣٦٠هـ)[١٨٧]، والحاكم(رحمه الله ٤٠٥هـ)[١٨٨]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «فُصِلَ القرآن من الذِّكْرِ، فوُضِعَ في بيت العِزَّة في السَّماء الدُّنيا، فجعل جبريل عليه السلام يَنْزِلُ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُرتِّلُه ترتيلاً».

قال الحافظ ابن حجر(رحمه الله ٨٥٢هـ): "وما تقدَّم مِن أنَّه نَزَل جُملةً واحدةً مِن اللوح المحفوظ إلى السَّماء الدُّنيا، ثمَّ أُنْزِل بعد ذلك مُفرَّقًا هو الصَّحيح المعتمد"[١٨٩].

وخصَّ الله تعالى هذه اللَّيلة الشريفة بالبركة؛ لكثرة نزول الخيرات والرحمات والبركات من السماء فيها، فالله عزَّ وجلَّ جعلها في ميزان الأعمال خيرٌ من ألف شهر، قال تعالى ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[القدر: ٣].

---

(١٨٣) صحيح البخاري (٤٦/٣) كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر في السَّبع الأواخر، برقم (٢٠١٥).

(١٨٤) وهو اختيار الجمهور من المفسِّرين والعلماء، بأنَّ اللَّيلة المباركة هنا ليلة القدْر، وهناك قول آخر: أنَّها ليلة النِّصْف من شعبان. انظر: تفسير الطبري (٧/٢٢، ٨)، وزاد المسير (٨٧/٤)، وتفسير الرَّازي (٦٥٢/٢٧).

(١٨٥) مصنَّف ابن أبي شيبة (١٤٤/٦) ولفظه: "رُفِعَ إلى جبريل ليلة القدرِ جُملةً، فرُفِعَ إلى بيت العِزَّة، جعل يَنْزِل تَنْزِيْلاً".

(١٨٦) السنن الكبرى (٢٤٧/٧) كتاب فضائل القرآن، باب كم بين نزول أول القرآن وبين آخره، برقم (٧٩٣٧) واللفظ له.

(١٨٧) المعجم الكبير، للطبراني (٣٢/١٢) برقم (١٢٣٨١).

(١٨٨) المستدرك، للحاكم (٢٤٢/٢) كتاب التفسير، برقم (٢٨٨١) وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.

(١٨٩) فتح الباري (٤/٩).

ورجَّح الإمام الطبري أنَّ المقصود من الآية معنى آخر، وهو أن ليلة القدر خير من ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر(١٩٠).

وعلى كلٍّ، فإنَّ الآية فيها شحذ الهمم لتحرِّي ليلة القدْر والاهتمام بها، والحرص على عمل الصالحات فيها، وبالخصوص القيام وتلاوة القرآن.

قال الرَّازي: "والمقصود الأصليُّ من الكلِّ جَرُّ المكلَّفِ إلى الطاعة وصرفه عن الاشتغال بالدنيا، فتارةً يُرجِّح البيت وزمزم على سائر البلاد، وتارةً يُفضِّل رمضان على سائر الشهور، وتارةً يُفضِّل الجمعة على سائر الأيام، وتارةً يُفضِّل ليلة القدر على سائر الليالي"(١٩١).

وليلة القدْر هي ليلة كتابة الأقدار والأرزاق والآجال، قال تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان: ٣ – ٤].

قال ابن كثير: "أي: في ليلة القدر يُفصَّل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السَّنَةِ، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا رُوي عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاهد، والضَّحاك، وغير واحدٍ من السَّلف"(١٩٢).

ولَمَّا "كانت تلك الأفعال والأقضية دالة على حكمةِ فاعلها؛ وُصِفَتْ بكونها حكيمة"(١٩٣). وجاء التنكير في قوله (ليلة) للتعظيم، ووصفها بـ(المباركة) تنويهًا بها وتشويقًا لمعرفتها(١٩٤).

وخلاصة القول: أنَّ ليلة القدر ليلة شريفة مباركة من وجهين:

الوجه الأول: تصريح القرآن بذلك، وكذلك أحاديث النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الكثيرة.

الوجه الثاني: نزول القرآن الكريم إلى بيت العزَّة جملة واحدة في تلك الليلة، وابتداء نزوله على نبيِّنا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم فيها.

---

(١٩٠) تفسير الطبري (٥٣٣/٢٤).
(١٩١) تفسير الرَّازي (٢٣٢/٣٢).
(١٩٢) تفسير ابن كثير (٢٤٦/٧).
(١٩٣) تفسير الرَّازي (٦٥٥/٢٧).
(١٩٤) التحرير والتنوير (٢٧٧/٢٥).

المطلب الثاني: (ليلةُ الإسراءِ والمعراج)

ليلة الإسراء: هي الليلة التي سار فيها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على ظهر الدَّابَّة(البُراق) من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالشَّام، وهي من آيات النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الثابتة في القرآن الكريم، قال تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الإسراء: ١].

ففي الآية دعوة للتعجُّب مِمَّا أسداه الله تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم من النعمة[١٩٥].

وكانت آيةً في ذلك الوقت لأنَّ المدَّة المتعارف عليها للسَّير من مكة للشَّام هي شهر؛ ولكنَّ الله قضى أن يكون ذلك السَّير في ليلةٍ واحدة آيةً لحبيبه ومصطفاه صلَّى الله عليه وسلَّم، وامتحانًا لقلوب عباده عمومًا، فكان منهم المصدِّق ومنهم المكذِّب.

وكان الإسراء بروحه وجسده على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال:﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ ولم يقل: (بروح عبده)، والأصل ألاَّ يُعدل عن الحقيقة والظاهر إلى التأويل إلا عند الاستحالة، كما أنَّه لو كان منامًا لما كانت فيه آية ومعجزة للخلق، ولما قال الله تعالى ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[النجم: ١٧ – ١٨][١٩٦].

وأمَّا المعراج: فهو العروج والصعود بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعد الانتهاء من الإسراء إلى السماء بصحبة أمين الوحي جبريل عليه السَّلام.

وكل ذلك كان على الحقيقة كما هو ظاهر نصِّ القرآن، ولذلك قال الله تعالى بعدُ ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾. فرؤية الآيات، والصلاة إمامًا بالأنبياء، وحديثه مع موسى عليه السَّلام، وقصَّة فرْض الصلاة؛ كلُّ ذلك كان من الآيات العظيمة التي سخَّرها الله تعالى لنبيِّه وأكرمه بها.

ويزيد تلك الليلة شرفًا - مع حدوث تلك الأحداث العظام - ما حدث من تغيُّرٍ في مجرى التاريخ بفرض الصلوات الخمس، ومراجعة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ربَّه فيها بعد أن كانت خمسين صلاة، كما دلَّ عليه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في الصحيح[١٩٧].

---

(١٩٥) زاد المسير (٧/٣).
(١٩٦) تفسير القرطبي (٢٠٨/١٠).
(١٩٧) صحيح البخاري (٧٨/١، ٧٩) كتاب الصَّلاة، باب كيف فرضت الصَّلاة في الإسراء، برقم (٣٤٩).

لقد كانت ليلة الإسراء والمعراج شريفةً لاحتوائها الشَّرف من كلِّ صِنْفٍ، ففي الآيات حَوَتْ أعظم الآيات من صعود لسدرة المنتهى ومقابلة الله تعالى الخ، وفي البَشَرِ حَوَتْ على أفضلهم وخيرتهم، فوجود النَّبيِّ محمد صلَّى الله عليه وسلَّم فيها والأنبياء عليهم السَّلام في الأرض وفي السماء، كما حَوَتْ شرف المكان من خلال الإسراء من مكة لبيت المقدس، والعروج إلى السماء؛ فهي من أشرف ليالي التاريخ.

المطلب الثالث: (اللَّيالِ العَشْر)

امتدح الله تعالى عشر ليالٍ في كتابه الكريم فقال ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[الفجر: ١ – ٢]، والفجر هنا هل يقصد به النَّهار أم صلاة الصُّبح؟ قولان. والأهمُّ: أنَّ الله تعالى أقسم به وبالليالي العشر ليُبيِّن أهميتهما وفضلها. واختُلِفَ في معناها على أقوال ثلاثة[١٩٨]:

القول الأول: أنَّها عشر ذي الحجَّة إلى يوم النحر، وهو قول ابن عباس، وابن الزبير، وغيرهما.

القول الثاني: أنَّها العشر الأُول من المحرَّم.

القول الثالث: أنَّها العشر الأواخر من رمضان. وصوَّب الطبري القول الأول ونسبه للإجماع[١٩٩].

ولاشكَّ أنَّ الليالي العشر التي هي عشر ذي الحجَّة كانت عظيمة مباركة لاشتمالها على أعظم الأعمال والطاعات؛ كالإحرام، والطواف بالبيت، والمبيت بمنى ومزدلفة، ويوم عرفة، والأُضحية، وذكر الله تعالى فيها. وعدل عن تعريفها مع أنَّها معروفة؛ ليتوصّل بترك التعريف إلى تنوينها المفيد للتعظيم[٢٠٠].

وكان السَّلف يستغلون تلك الليالي بكثرة قراءة القرآن وذِكْر الله تعالى والعبادة، ذكر محمَّد بن نصر المرْوَزِي (٢٩٤هـ): "عن أبي عثمان - النهدي - كانوا يُعظِّمون ثلاث عَشَرَاتٍ؛ العَشْرُ الأُوَل من المحرَّم، والعَشْر الأُوَل من ذي الحِجَّة، والعَشْر الأَواخِر من رمضان"[٢٠١].

قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «مَا العَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ؟» قَالُوا: وَلاَ الجِهَادُ؟ قَالَ: «وَلاَ الجِهَادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ»[٢٠٢].

---

(١٩٨) انظر: تفسير الطبري (٣٩٦/٢٤)، وزاد المسير (٤٣٧/٤).

(١٩٩) تفسير الطبري (٣٩٧/٢٤).

(٢٠٠) التحرير والتنوير (٣١٣/٣٠).

(٢٠١) مختصر قيام اللَّيل، للمقريزي (٢٤٧).

(٢٠٢) صحيح البخاري (٢٠/٢) كتاب أبواب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، برقم (٩٦٩).

المطلب الرابع: (ليالِ موسى عليه السَّلام مع ربِّه عزَّ وجلَّ)

قال الله تعالى ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[البقرة:٥١]، وقال تعالى ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ١٤٢].

ذُكر في الآيتين السابقتين نبأ موسى عليه السَّلام مع قومه بعد النَّجاة من فرعون وجنوده، وكان قد وعدهم موسى عليه السَّلام بأن يأتيهم بكتابٍ من عند الله تعالى، فواعده الله أربعين ليلة(٢٠٣).

واقتصر على ذكر الليالي دون الأيام، وإن كانت الأيام تبعًا معها؛ لأنَّ أوَّلَ الشهورِ الليالي، فصارت الأيامُ لها تبعًا(٢٠٤).

وسبب بركة هذه الليالي هو مقابلة الله تعالى لموسى عليه السَّلام بجانب الطور، وأَخْذِه الألواح وفي نسختها هدى ورحمة.

واختار أكثر المفسِّرين أنَّها كانت في ذي القعدة وعشر ذي الحجَّة، وقال بعضهم: أنَّها ذي الحجَّة وعشرٌ من المحرَّم(٢٠٥).

وبهذا نكون قد انتهينا من مبحث الليالي المخصوصة بالذِكْرِ في القرآن الكريم، مع بيان فضائلها، وسبب خصوصيَّتها، نسأل الله تعالى أن يشملنا برحمته.

---

(٢٠٣) انظر: تفسير الرَّازي (٥١١/٣)، وتفسير ابن كثير (٢٦١/١).
(٢٠٤) النُّكت والعيون (٢٠/١)، وتفسير الرَّازي (٥١١/٣).
(٢٠٥) انظر: تفسير القرطبي (٣٩٥/١)، والبحر المحيط (٣٢٢/١).

المبحث الثامن: لَمَسَاتٌ إعجازيَّة في اللَّيل

من خلال ما سبق من عرضٍ لموضوع اللَّيل وآياته في القرآن الكريم، نجدُ أنَّها تضمَّنت الإعجاز العلمي والبياني، ومن أجل ذلك دعا الله جلَّ جلاله العِبَاد إلى التفكُّر في آية اللَّيل وكذلك آية النَّهار، وامتدحهم بذلك.

وسوف أذكر في هذا المبحث بعضًا من اللمسات الإعجازيَّة المستنبطة من آيات اللَّيل في مطلبين اثنين:

المطلب الأول: الإعجاز العلميّ في آيات اللَّيل

إنَّ المتدبِّر لآيات اللَّيل والنَّهار في القرآن الكريم، يجدها دعت صراحةً للتدبُّر والتفكُّر فيهما؛ وما ذلك إلاَّ لوجود حقائق كونيَّة علميَّة تتعلَّق بخلقهما، فالتفكُّر وإعمال العقل البشري في خلقهما يُوصل إلى نتيجة واحدة وهي قدرة الله الصانع وعظمته في الكون.

ومن هذا المنطلق تفانى العلماءِ والفلكيُّون في إبراز تلك الحقائق العلميَّة من خلال دراساتهم وأبحاثهم.

وفي هذه العجالة سأتطرق للإعجاز العلميِّ في آيات اللَّيل من خلال محورين:

المحور الأول: تعاقب اللَّيل والنَّهار.

إنَّ اللَّيل والنَّهار مرتبطٌ بالشمس والقمر، وفي القرآن إشارة إلى ذلك إمَّا بالعطف أو بدونه، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[لقمان: ٢٩]، وقال عزَّ وجلَّ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[فصلت: ٣٧]، وقال سبحانه ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٤٠]، وقال جلَّ جلاله ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[النور: ٤٤].

إنَّ هذه الآيات -وغيرها- مجتمعة تدُلُّ على وجود علاقة بين اللَّيل والقمر من جهة، وبين النَّهار والشمس من جهة أُخرى، فاللَّيل مُظلمٌ والقمر مُعْتِم، والنَّهار مُنيرٌ والشمس ضياء.

والذي يعنينا هنا هو كيفيَّة تعاقب اللَّيل والنَّهار، وعلاقة ذلك بالشمس التي هي أساس النظام المجرِّي، والقمر الذي هو نور.

وبيان ذلك: أنَّ الأرض كوكبٌ مُنطفئ يدور أمام منبعٍ ضوئيٍّ كبيرٍ مُلتهبٍ وهو الشمس، ولولا أنَّ الأرض تدور حول محورها غير المتوازي لمستوى دورانها أمام الشمس؛ لما كان هناك ليلٌ ولا نهار.

لأنَّ هذا هو التصوُّر العقليّ الذي يُوصل إلى نتيجة تعاقب اللَّيل والنَّهار، فدوران الأرضِ حول محورها، ودورانها حول الشمس، وميلان محورها؛ كلٌّ هذه معًا كنظامٍ تولَّد منه اختلاف اللَّيل والنَّهار وتعاقبهما طبقًا للوصف القرآني، وهنا يَكْمُن الإعجاز القرآني.

فكلٌّ له مسارٌ يسبح فيه ويتحرَّك، ولا مجال لإدراك أحدهما على الآخر، ولا يسبق اللَّيل النَّهار، وفق نظامٍ كونيٍّ دقيق، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ويُلاحظ أنَّ هناك وقتين يتداخل فيهما اللَّيل والنَّهار بحُكْمِ دخول أحدهما على الآخر، وسبب هذا التداخل كون الأرض كرويَّة فلابدَّ من نقطة التقاء بين ظلام اللَّيل وضياء النَّهار(٢٠٦)، وهذا ما يظهر من إيلاج اللَّيل في النَّهار والعكس.

قال ابن عاشور: "وحقيقة «تولج» تدخل وهو هنا استعارة لتعاقب ضوء النهار وظلمة الليل، فكأن أحدهما يدخل في الآخر، ولازدياد مدة النهار على مدة الليل وعكسه في الأيام والفصول عدا أيام الاعتدال وهي في الحقيقة لحظات قليلة ثم يزيد أحدهما لكن الزيادة لا تدرك في أولها فلا يعرفها إلا العلماء"(٢٠٧).

ويتَّضح ذلك جليًّا "عندما تصعد الشمس شمالاً في الصيف، يزداد طول النَّهار تدريجيًا، بينما يحدث العكس في النصف الجنوبي، إذ يتقلَّص طول النَّهار تدريجيًا"(٢٠٨).

وهناك عاملان رئيسان يتسببان في طول النهار والليل أو قصرهما، وهما ميل الشمس عن خطِّ الاستواء والعرض الجغرافي، فالشمس عندما تكون على خطِّ الاستواء فإنَّ اللَّيل والنَّهار يتساويان في جميع أنحاء المعمورة، وكذلك فإنَّ الموقع الجغرافي الذي يقع على خط عرض صفر أي على خط الاستواء فإن اللَّيل والنَّهار يتساويان فيه طول

(٢٠٦) انظر موقع: موسوعة النابلسي للعلوم الإسلاميَّة، اللَّيل والنَّهار، الأصل ندوة أُقيمت بتاريخ ٢٦/ ٨/ ٢٠٠٩م للدكتور/ محمد راتب النابلسي، ومقال "آية اختلاف اللَّيل والنَّهار في ضوء عِلم الفضاء لـد. نجاة محمد رشيد العبيدي، موقع: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة، ومقال لأحمد مصلح بعنوان "آيات تعاقب اللَّيل والنَّهار في كتاب الله" موقع: الهيئة العالميَّة للإعجاز العلمي.

(٢٠٧) التحرير والتنوير (٣/٢١٤).

(٢٠٨) الأرض في القرآن، شاهر جمال (٧١).

السنة، وكلَّما ابتعدنا عن خطِّ الاستواء زاد الفرق في طول النَّهار أو اللَّيل وفي قصرهما، وفي الواقع أنَّ طول النَّهار في حال الانقلاب الخريفي أو الربيعي أطول بدقائق(٢٠٩).

كما أنَّ التعبير بتقليب اللَّيل والنَّهار فيه معنى اختلاف اللَّيل والنَّهار، فـ"تقليب اللَّيل والنَّهار هو تغيير الأُفق من حالة اللَّيل إلى حالة الضِّياء ومن حالة النَّهار إلى حالة الظلام، فالمقَلَّبُ هو الجوُّ بما يختلف عليه من الأعراض؛ ولكن لَمَّا كانت حالة ظلمة الجوِّ تُسمَّى ليلاً وحالة نُوره تُسمَّى نَهارًا: عبَّرَ عن الجوِّ في حالتيه بهما، وعدِّي التقليب إليهما بهذا الاعتبار"(٢١٠).

ويُلحق بمسألة تعاقب اللَّيل والنَّهار مسألة أُخرى تتعلَّق بالظلمة وهي ما ذكره العلماءِ من أنَّ الأصل في الخلق الظلمة، واستدلُّوا بقوله تعالى ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾[يس: ٣٧].

فظاهر النَّصِّ يُفيد أنَّ الأصل في الكون الظُّلْمَة، بدلالة التعبير بلفظ (الانسلاخ) الذي جاء الفعل فيه مضارعًا إشارة لتكرُّره، فالسَّلخ يكون للنَّهار ثم يعود على الأصل وهو الظلمة. قال الألوسي:

المحور الثاني: أثر وجود اللَّيل في حياة الإنسان والحيوان والنباتات.

سبق ذِكْر شيءٍ من ذلك الأثر عبر موضوعين(٢١١)، ويُمكن تلخيص ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: أنَّ الله تعالى جعل اللَّيل والنَّهار متلازمين ومُكمِّلين لبعضهما، وجميع الكائنات الحيَّة تُفيد من هذا التلازم، فالإنسان كائنٌ حيٌّ له طاقةٌ محدودة يحتاج معها إلى راحة وطمأنينة وسكينة، ومن أجل ذلك وُجِد اللَّيل.

فالنَّهار جُعِلَ لقضاء المعاشات والأعمال والسَّعي في الأرض؛ فكان من حكمة الله أن يخلق اللَّيل لهذه الحكمة.

ففي اللَّيل تتجدَّد خلايا الإنسان ويرتاح جسده بسبب النوم أو الراحة؛ لكي يستعيد نشاطه وقوَّته فيستعين بها في النَّهار.

---

(٢٠٩) من مقال للدكتور: خالد الزعاق، منشور في جريد سبق بتاريخ: ٢٠/ ١١/ ١٤٣٤هـ.
(٢١٠) التحرير والتنوير (٢٦٤/١٨).
(٢١١) انظر: فوائد اللَّيل، ص (٢٠-٢٢)، وأثر التلازم بن اللَّيل والنَّهار، ص (٢٤).

ثانيًا: اكتشف العلماء مؤخَّرًا أنَّ النوم بالنَّهار له تأثيرٌ على الجهاز العصبي بسبب قلَّة إفراز مادة الميلاتونين من قِبَل الغدَّة الصنوبريَّة في الدِّماغ، وقد سبق شرح ذلك(٢١٢).

وهذا ما يُفسِّر حالة القَلَق والكآبة الحاصلة لبعض الناس، والتي من أهم أسبابها السهر باللَّيل وعدم النوم، فمخالفة الفطرة التي فطر الله النَّاس عليها في ذلك يوصل القلق خاصةً في ظلِّ قضاء اللَّيل بالملهيات والبُعد عن عبادة الله تعالى.

ثالثًا: أنَّ باجتماع ظلام اللَّيل وضوء النَّهار حياة للنباتات، وسببٌ في دوام استمرارها، قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الرعد: ٣].

وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ تتابع اللَّيل والنَّهار له علاقة مهمَّةٌ في حياة النباتات وإنتاج الثمار، ويظهر الإعجاز في ذلك من خلال عمليَّة البناء الضوئي، "ففي النهار يقوم النبات بعملية البناء الضوئي وبها يستطيع النبات تحويل الطاقة الضوئية للنهار إلى طاقة كيماوية مخزنة في الروابط بين جزيئات المواد الغذائية الناتجة في النبات وتخزينها في مخازن الطاقة في النبات في جزيئات (ATP) و (ADP)أي الادينوزين ثلاثي الفوسفات والادينوزين ثنائي الفوسفات.

وفي البناء الضوئي يثبت النبات ثاني أكسيد الكربون الجوي على هيئة ذرَّات كربون في المواد الغذائية النباتية مثل السكريات والدهون.

يلي تفاعلات الضَّوء تفاعلات الظلام في دورة مُنتظمة، وتكون المحصِّلة النهائيَّة لتفاعلات الضَّوء وتفاعلات الظلام تكوين المواد الكربوهيدراتية التي منها ينتج باقي المواد والمركبات النباتيَّة"(٢١٣).

---

(٢١٢) انظر: ص (٢٧، ٢٨).

(٢١٣) مقال لـ أ.د نظمي خليل أبو العطا موسى بعنوان: "يُغشي اللَّيل النَّهار" معجزة قرآنيَّة، في موقع الشبكة العنكبوتيَّة: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة.

المطلب الثاني: الإعجاز البياني في آيات اللَّيل

لاشكَّ أنَّ القرآن الكريم نزل بلسان عربيٍّ مبين، وقد تحدَّى الله تعالى النَّاس قاطبة بأن يأتوا بآيةٍ على نفس بيانه ونظامه، فلم ولن يستطيعوا فعل ذلك، وما ذلك إلا لأنَّه كلام الله المُعْجِز البليغ الفصيح.

وكانت آيات اللَّيل في القرآن الكريم ذات نصيبٍ وافرٍ من تلك الوجوه البيانيَّة، ومن ذلك:

أولاً: استخدام أسلوب الاقتران، وهو الأكثر في القرآن كما سبق(٢١٤)، بأن يُذكر اللَّيل والنَّهار مع بعضهما البعض في آيةٍ واحدة، بفاصل أو بدونه وهو الأغلب(٢١٥).

وكثرة الاقتران بينهما في القرآن جاء ليُرشدنا إلى أهميَّة التفكُّر والتدبُّر في هاتين الآيتين العظيمتين، مع ما جاء من الحثِّ الصريح على التفكُّر فيهما.

ثانيًا: إفراد أحدهما على الآخر في الذِكْر، وقد كان للَّيل قَصَبُ السَّبْقِ هنا، لتعدُّد اللَّيالي المخصوصة المذكورة في القرآن، ولأهميَّته وخصوصيَّته ببعض العبادات والتفرُّغ عن الأشغال، بخلاف النَّهار الذي لم يُفرد بالذِكْر إلاَّ في ثلاثة مواضع(٢١٦).

ومن هذه الليالي المذكورة: ليلة القدر، وليلة الإسراء، واللَّيالِ العشْر، وليلة الصيام، وليالي موسى عليه السَّلام، واللَّيلة التي أمر الله تعالى فيها موسى عليه السَّلام أن يسري ببني إسرائيل ابتعادًا من عدوِّ الله فرعون، وكذا ليلة لوط عليه السَّلام.

كما انفرد اللَّيل بالقيام والتهجُّد عن النَّهار، وذلك بيانًا لفضل صلاة اللَّيل، وحثًّا على استغلال تلك الدقائق والساعات كل ليلة، كما قال تعالى ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[المزمل: ٦].

ثالثًا: استخدام أسلوب التقديم والتأخير، وهو "ظاهرةٌ لطيفةٌ، وفقهٌ بلاغيٌّ رفيع في التعبير القرآني، يُعتبر دليلاً واضحًا على الإعجاز البياني في القرآن.

ومن المعلوم في صياغة الجملة في اللُّغة العربيَّة: أنَّ كلَّ كلمةٍ فيها لها ترتيبٌ خاصٌّ فيها بحسب وضعها، المبتدأ مُقدَّمٌ على الخبر، والفِعْل مُقدَّمٌ على الفاعل ... هذا هو الأصل في صياغة الجملة.

---

(٢١٤) انظر: ص (٥).
(٢١٥) وقد تقدَّم ذِكْر اللَّيل على النَّهار في القرآن أكثر من خمسين مرَّة.
(٢١٦) وهذه المواضع في [سورة الأحقاف:٣٥]، و[ويونس:٤٥]، و[آل عمران:٧٢].

وقد تدعو بعض الأسباب والمقتضيات إلى العدول عن هذا الأصل، ونقل بعض الكلمات من مواضعها الأصليَّة في الجملة إلى مواضع أُخرى، بتقديمها أو تأخيرها، وذلك لتحقيق غَرَضٍ بلاغيٍّ مُراد، والتركيز على معنى بيانيٍّ ملحوظ.

واستخدم القرآن أسلوب التقديم والتأخير على أرفع صورةٍ بيانيَّةٍ، وبدقَّةٍ عجيبةٍ معجزة، ورصف الألفاظ في الجملة بجنب بعض، بطريقة متناسقةٍ رائعةٍ"(٢١٧).

وقد جاء هذا الأسلوب في اثنين وخمسين موضعًا بتقديم اللَّيل على النَّهار، والحكمة من ذلك هي السَّبق الزماني، وقد بيَّنها السُّيوطي بقوله: "السَّبق، وهو إمَّا في الزمان باعتبار الإيجاد، كتقديم اللَّيل على النَّهار، والظلمات على النور، وآدم على نوح، ونوح على إبراهيم...الخ"(٢١٨).

رابعًا: استخدام أسلوب الاستعارة، وهي: اللَّفظ المستعمل في غير ما وُضِعَ له، لعلاقة المشابهة، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الوضعي، أو قُل: هو تَشْبيهٌ حُذفَ أَحدُ طَرَفَيْه(٢١٩).

وقد جاءت الاستعارة في قوله تعالى ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾[يس: ٣٧]،"استعارة محسوس لمحسوس بوجهٍ عقليّ"(٢٢٠)، وإجراء الاستعارة: "شبَّه كشف الضَّوء عن اللَّيل، بكشْطِ الجِلْد عن نحو الشَّاة، بجامع ترتب ظهورِ شيءٍ على شيءٍ في كلٍّ، واستُعِيْر لفظ المشبَّه به وهو «السَّلْخ» للمشبَّه، وهو كشف الضوء، واشتقَّ منه «نسلخ» بمعنى نكشف، على طريق الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة"(٢٢١).

خامسًا: استخدام أسلوب التوشيح، وهو نوعٌ من أنواع البديع، عُرِّف بأنَّه: ما دلَّ أول الكلام على آخره.

وجاء هذا الأسوب في قوله تعالى ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾[يس: ٣٧]، "فإن من كان حافظاً لهذه السورة متَفَطِّناً إلى أن مقاطع آيها النون المردفة، وسمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل علم أن الفاصلة " مظلمون "، لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم، أي دخل في الظلمة، ولذلك سمي توشيحا، لأن الكلام لما دل أوله على

(٢١٧) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، لـ د. صلاح الخالدي، (٢٦١، ٢٦٢).
(٢١٨) معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، (١٣٣/١، ١٣٤)، وقد ذكر للتقديم في كتاب الله عشرة أسباب.
(٢١٩) تلخيص المفتاح (١٥١) بتصرف، والموسوعة القرآنية المتخصِّصَة (٥٣٢) بقلم أ.د: عبد العظيم المطعني.
(٢٢٠) معترك الأقران (٢١٠/١)، والإتقان في علوم القرآن (١٥١/٣).
(٢٢١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، للهاشمي (٢٦٩) حاشية رقم (١).

آخره نزّل المعنى منزلة الوشاح، ونُزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشْح اللذين يجول عليهما الوشاح"(٢٢٢).

سادسًا: استخدام أسلوب اللَّف والنَّشر، وهو أن يذكر مُتعدِّد، ثم يذكر ما لكلٍّ من أفراده شائعًا من غير تعيين، اعتمادًا على تصرُّف السَّامع في تمييز ما لكلِّ واحدٍ منها، وردِّه إلى ما هو له.

وقد جاء هذا الأسلوب في حديث القرآن عن اللَّيل بنوعيه:

الأول: أن يكون الترتيب في النَّشر على ترتيب اللَّف أو الطي، قال تعالى ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[القصص: ٧٣]، **فالسُّكون** راجعٌ إلى اللَّيل، والابتغاء إلى النَّهار، والأمر على الترتيب.

الثاني: أن يكون الترتيب في النَّشر على خلاف ترتيب اللَّف أو الطي، قال تعالى ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلًا﴾[الإسراء: ١٢]، **حيث ذكر ابتغاء الفَضْل للثاني، وعِلْم** الحِسَاب للأول، على خلاف الترتيب(٢٢٣).

سابعًا: استخدام أسلوب الطِبَاق أو المطابقة، وهو الجمع بين المتضادَّين في الجملة(٢٢٤)، وقد ورد ذلك كثيرًا فيما يختصُّ بآيات اللَّيل والنَّهار مجتمعان، ومن ذلك قوله **تعالى**: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[النور: ٤٤].

ثامنًا: إطلاق اسم الجزء على الكُلِّ، وهو من علم المعاني، ومن ذلك قوله تعالى ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾[المزمل: ٢]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾[الطور: ٤٩](٢٢٥)، أي: ومن اللَّيل أي زمنا هو بعض الليل(٢٢٦).

---

(٢٢٢) معترك الأقران (٣٩/١).
(٢٢٣) انظر: معترك الأقران (٣١١/١)، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (٣١٠).
(٢٢٤) معترك الأقران (٣١٤/١).
(٢٢٥) المرجع السابق (١٨٧/١).
(٢٢٦) التحرير والتنوير (٨٥/٢٧).

تاسعًا: إطلاق اسم الحال على المحلِّ، وهو من علم المعاني أيضًا، ومثاله: قال تعالى ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[سبأ: ٣٣][٢٢٧]، فاللَّيل والنَّهار لا يصدر منهما المكر، ولكنَّ المعنى وقوع مكرهم في اللَّيل والنَّهار.

عاشرًا: استخدام أسلوب التعريف والتنكير، وقد وردت لفظة اللَّيل مفردة معرَّفة كما في قوله تعالى ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾[آل عمران: ٢٧]، وكقوله تعالى ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الأنعام: ١٣].

وجاءت مفردة منكَّرة (ظرف زمان) كما في قوله تعالى ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾[يونس: ٢٤]، وقوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾[نوح: ٥].

تلك عشرةٌ كاملة؛ أختم بها هذا المبحث، سائلاً الله عزَّ وجلَّ أن يجعل خير أعمالنا خواتمها، وأن يختم لنا بخير في كل أمورنا، وأن يُثبِّتنا على الحقِّ إلى يوم لقياه.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمَّد وآله وصحبه ومن اتبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(٢٢٧) معترك الأقران (١/١٩٠).

الخاتمة:

الحمد لله العظيم على إتمام نعمه، والشكر له على تزايد مِنَنِه، والصلاة والسَّلام على أفضل رسله، وخيرته من خلقه، محمَّد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه، وبعدُ:

فقد وصلت حروف هذا البحث إلى نهايتها، وكلماته إلى تمام غايتها، بعد استعراضٍ سريعٍ ودراسة موضوعيَّة لآيات اللَّيل في القرآن الكريم، واستخراج الحِكَم والأسرار وراء خَلْقِه وتخصيصه ببعض الأمور.

وبعد التجوُّل في هذا الموضوع العظيم، أختمه بذكر أهمِّ النتائج والتوصيات:

أولاً: النتائج:

١. أنَّ اللَّيل والنَّهار آيتان من آيات الله تعالى، وكونها آية كونيَّة متَّصلة بالعالم العلويّ الفلكي؛ نبَّه القرآن عليها، وأكثَرَ من ذِكْرها، فقد ورد ذِكْر لفظ "اللَّيل" في القرآن الكريم نيِّفًا وتسعين مرَّة كما سبق.

٢. أنَّ لفظ "اللَّيل" يُعتبر من المتواطئ اللفظي في القرآن الكريم، والذي له معنى واحد مع اختلاف القصد الذي يتغيَّر بتغيُّر سياق الآية، وهذا المعنى هو الفترة الزمنيَّة المحدَّدة من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق.

٣. تنوُّع ورود لفظ "اللَّيل" في القرآن الكريم، فقد جاء مُفردًا وجمعًا، ومُعرَّفًا ومُنكَّرًا، ومُضافًا وغير مُضاف.

٤. أنَّ الظلمة من لوازم اللَّيل، فهي صفةٌ من صفاته لا تنفكّ عنه، كما قال تعالى ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا﴾[النازعات: ٢٩].

٥. أنَّ أهميَّة اللَّيل بالنسبة للخلق تظهر من جهتين عمومًا:

الجهة الأولى: من جهة فوائده على الخَلْق، فتعاقب اللَّيل والنَّهار به تستمرُّ الحياة، وفي اللَّيل سكون وراحة وهدوء، وفي النَّهار عملٌ وحركة...الخ.

الجهة الثانية: من جهة أخذ العِظَة والعِبرة من خلقهما، وهذا ما دعت إليه آيات الكتاب العزيز.

٦. تنوُّع الأساليب البلاغيَّة التي تحدَّثت عن اللَّيل في القرآن الكريم، و

٧. بيان الإعجاز العلمي المتعلِّق ببعض آيات اللَّيل، والذي دلَّ ضمنًا على عظمة الخالق وأنَّه المستحقُّ للعبادة.

٨. لوحظ من خلال البحث في آيات اللَّيل في القرآن الكريم أنَّها في الغالب الأكثر مكيَّة، وهذا يدلُّنا على عدَّة دلائل منها: وصف الحالة التي كانت عليها الدعوة آنذاك مع تلائم الخطاب الدعوي والديني مع تلك الحِقْبة وأهلها.

ثانيًا: التوصيات:

١. أنَّ القرآن كتاب هداية وإرشاد، به تطمئن قلوب الحيارى والغافلين؛ فحريٌّ بطلبة علم التفسير الموضوعي أن يتوغلوا في موضوعاته، وأن يستخرجوا للناس أسرار آيات الكتاب العزيز؛ لكي تطهر قلوبهم بتدارسه والعيْش مع آياته، ومع مجاهدة النَّفس في إخلاص العمل لله: تأتي منفعة عباد الله.

٢. أوصي بالكتابة والبحث المتعلِّق بالكون والأفلاك وحركتها، وجمع الآيات التي تتحدَّث عن ذلك، مع ربطها ببعضها البعض، وربطها أيضًا بالإعجاز العلمي والبياني من دون تطويعٍ للنصوص، فإنَّ هذه الآيات لم تُخلق عبثًا؛ بل خلقها الله لحكم عظيمة، تستوجب أن يُمعن فيها الباحثون والمهتمون بالقرآن وعلومه.

وفي الختام: أحمد الله على البدء والختام، وأسأله المزيد من فضله، والمجاهدة في الإخلاص لوجهه، مع شكري للقائمين على هذا المشروع العظيم لإتاحة الفرصة لي، سائلاً الله لي ولهم دوام الحصول على الأجر منه سبحانه تعالى.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده وحبيبه محمد وعلى آله والتابعين.

المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.
٢. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان لمحمد بن حبان، ترتيب: علي بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط/ مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٣. أخلاق النبي وآدابه لعبد الله المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني، تحقيق: صالح بن محمد الونيان، ط/ دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٩٩٨م.
٤. الأرض في القرآن لشاهر جمال، ط/ دار الكتاب الثقافي (الأردن)، الطبعة الأولى: ٢٠٠٥م.
٥. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، لـ د. صلاح الخالدي، ط/ دار عمَّار (عمَّان)، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ.
٦. البحر المحيط لمحمد بن يوسف بن حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، ط/ دار الفكر (بيروت)، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.
٧. بدائع الفوائد لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، ط/ دار الكتاب العربي (بيروت).
٨. البرهان في علوم القرآن لمحمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى: ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧ م.
٩. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادى، تحقيق: محمد علي النجار، ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي (القاهرة).
١٠. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة لعبد المتعال الصعيدي، ط/ مكتبة الآداب، الطبعة السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١١. تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط/ دار الهداية.
١٢. تأويلات أهل السُّنَّة لمحمد بن محمد الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، ط/ دار الكتب العلميَّة (بيروت)، الطبعة الأولى: ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
١٣. التبيان في أقسام القرآن لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط/ دار المعرفة (بيروت).
١٤. التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن عاشور، ط/ الدار التونسية للنشر (تونس)، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

١٥. الترغيب والترهيب لإسماعيل بن محمد الأصبهاني، تحقيق: أيمن بن صالح بن شعبان، ط/ دار الحديث (القاهرة)، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م.

١٦. تفسير البغوي "معالم التنزيل" أبو محمد الحسين البغوي، تحقيق: محمد النمر - عثمان جمعة - سليمان الحرش، ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة: ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

١٧. تفسير الرازي "مفاتيح الغيب" لمحمد بن عمر الرازي، ط/ دار إحياء التراث العربي (بيروت)، الطبعة الثالثة: ١٤٢٠ هـ.

١٨. تفسير السمرقندي "بحر العلوم" لنصر بن محمد السمرقندي، تحقيق: علي معوض وعادل أحمد، ط/ دار الكتب العلميَّة (بيروت)، الطبعة الأولى: ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.

١٩. تفسير الطبري "جامع البيان" لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط/ مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٢٠. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط/ مكتبة نزار مصطفى الباز (السعودية)، الطبعة الثالثة: ١٤١٩ هـ.

٢١. تفسير القرآن العظيم لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

٢٢. التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب، ط/ دار الفكر العربي (القاهرة).

٢٣. تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" لمحمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط/ دار الكتب المصرية (القاهرة)، الطبعة الثانية: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

٢٤. تفسير الماوردي "النكت والعيون" لعلي بن محمد الماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط/ دار الكتب العلمية (بيروت).

٢٥. تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط/ دار إحياء التراث العربي (بيروت)، الطبعة الأولى: ٢٠٠١م.

٢٦. التوقيف على مهمات التعاريف لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف، ط/ عالم الكتب (القاهرة)، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٢٧. التيسير في القراءات السبع لعثمان بن سعيد، أبو عمرو الداني، ط/ دار الكتاب العربي (بيروت)، الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢٨. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع لأحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ط/ المكتبة العصرية (بيروت).

٢٩. الحجة في القراءات السبع للحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، ط/ دار الشروق (بيروت)، الطبعة الرابعة: ١٤٠١ هـ.

٣٠. الدر المنثور في التفسير بالمأثور لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط/ دار الفكر (بيروت).

٣١. زاد المسير في علم التفسير لعبد الرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط/ دار الكتاب العربي (بيروت)، الطبعة الأولى: ١٤٢٢ هـ.

٣٢. السبعة في القراءات لأحمد بن موسى بن مجاهد البغدادي، تحقيق: شوقي ضيف، ط/ دار المعارف (مصر)، الطبعة الثانية: ١٤٠٠هـ.

٣٣. السنن الكبرى لأحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، ط/ مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ - ٢٠٠١ م.

٣٤. الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط/ دار العلم للملايين (بيروت)، الطبعة الرابعة: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م.

٣٥. صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، ط/ دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

٣٦. غريب القرآن لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد صقر، ط/ دار الكتب العلمية، السنة: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ م.

٣٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن حجر العسقلاني، ط/ دار المعرفة (بيروت)، ١٣٧٩م، تخريج: محب الدين الخطيب.

٣٨. الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي لزين الدين محمد المناوي، تحقيق: أحمد مجتبى، ط/ دار العاصمة (الرياض).

٣٩. في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، ط/ دار الشروق (بيروت)، الطبعة السابعة عشر: ١٤١٢ هـ.

٤٠. القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز للسمين الحلبي "سورة آل عمران"، رسالة علميَّة بالجامعة الإسلاميَّة في مرحلة الدكتوراه، تحقيق: وائل محمد جابر، ١٤٣٥ه.

٤١. الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل لمحمود بن عمرو الزمخشري، ط/ دار الكتاب العربي (بيروت)، الطبعة الثالثة: ١٤٠٧ هـ.

٤٢. الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأحمد بن محمد الثعلبي، ط/ دار إحياء التراث العربي (بيروت)، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م.

٤٣. لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأنصاري، ط/ دار صادر (بيروت)، الطبعة الثالثة: ١٤١٤ هـ.

٤٤. المحكم والمحيط الأعظم لعلي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط/ دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م.

٤٥. مختصر "قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر" لمحمد بن نصر المَرْوَزِي، اختصار: أحمد بن علي المقريزي، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م.

٤٦. المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط/ دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٤٧. معاني القرآن وإعرابه لإبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط/ عالم الكتب (بيروت)، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م.

٤٨. معترك الأقران في إعجاز القرآن لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط/ دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م.

٤٩. المعجم الكبير لسليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، ط/ مكتبة ابن تيمية (القاهرة)، الطبعة الثانية.

٥٠. معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس القزويني، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط/ دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥١. المفردات في غريب القرآن للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط/ دار القلم (دمشق)، الطبعة الأولى: ١٤١٢ هـ.

٥٢. الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (مصر)، عام النشر: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م.

٥٣. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لعبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم، ط/ مؤسسة الرسالة (بيروت)، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٥٤. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر البقاعي، ط/ دار الكتاب الإسلامي (القاهرة).

٥٥. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة الأولى: ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٥٦. الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري، حققه وعلَّق عليه: محمد عثمان، ط/ مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة)، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م.

المقالات العلمية:

٥٧. مقالة من موقع د. جمال عبد العظيم على شبكة الإنترنت، نشرت في ٨ ديسمبر ٢٠١٠م.

٥٨. مقاله آية اختلاف اللَّيل والنَّهار في ضوء عِلم الفضاء لـ د. نجاة محمد رشيد العبيدي، من موقع: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة.

٥٩. مقاله لـ أ.د: نظمي خليل موسى، بعنوان: يُغشي اللَّيل النَّهار، من موقع: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة.

٦٠. مقاله لـ د. جابر سالم القحطاني، في جريدة الرياض، نُشرت في يوم الإثنين ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٨هـ - ١٦أبريل ٢٠٠٧م - العدد ١٤١٧٥.

٦١. مقاله لـ د. خالد الزعاق، في جريدة سبق، بتاريخ: ٢٠/ ١١/ ١٤٣٤ه.

٦٢. مقاله لـ د. محمد راتب النابلسي، بعنوان: اللَّيل والنَّهار، من موقع النابلسي للعلوم الإسلامية. الأصل ندوة أُقيمت بتاريخ ٢٦/ ٨/ ٢٠٠٩م.

٦٣. مقاله لأحمد مصلح بعنوان: آيات تعاقب اللَّيل والنَّهار في كتاب الله، من موقع: الهيئة العالميَّة للإعجاز العلمي.